حجارة قلم

تأليف

وليد الزهيرى

obeikandl.com

طبعة ٢٠١٧

الزهيرى، وليد

حجارة قلم: وليد الزهيرى– .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

١٨٠ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٤٧٥ ٤

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

obeikandl.com

حجارة قلم

تأليف

وليد الزهيرى

obeikandl.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٢١٥٧

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٧٥-٤

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : حجارة قلم

المؤلف : وليد الزهيرى

الغلاف : كريم ادم

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikandl.com

إهـداء

إلـى مُعلمـي الأول

إلـى روح أمـــــي

وليد الزهيري

obeikandl.com

obeikandl.com

حجارة قلم

(١)

شرد ذهنه قليلاً، موجهًا نظره نحو بنايات (المنيل) الشاهقة الجاثمة على ضفة النيل، فرك (الريس رزق) لحيته البيضاء المدببة بكفه ملاحقًا شمس الأصيل وهي تتوارى خلف الأعمدة الخرسانية، حتى أعاده من شروده اهتزاز قاربه الساكن في عرض النيل، والصوت المنبعث من راديو صغير بجواره لا يفارقه:

ـ نستمع الآن لآيات من الذكر الحكيم، يتلوها علينا القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد:

"مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)"[١]

قبض بيديه المجعدتين على المجدافين، حركهما قليلاً جاذبًا قاربه للخلف، وابنه الأكبر (يسري) الواقف على حافته بجسده النحيل متجاوزًا العشرين من عمره بقليل، منحنيًا للأمام يسحب الشباك من بين قدميه، ويلقيها بروية في قاع النيل، ويمده بالشباك المفرودة الابن الأصغر (ماهر) المطل على مشارف المراهقة والواقف بقاع المركب، لمح (ماهر) بنظرة حادة نباتات

١- سورة الرحمن الآية (١٩ - ٢٢) .

شاردة على شاطئ النيل، ملأت شفتاه ابتسامة عريضة، جذب (يسري) الشباك من بين قدميه مخاطبًا أخيه:

- هِمّ بالغزل.

عاد لفرد شباك الصيد في همة:

- أهو.

أتم ولديه عملهما، رفع الأب يديه للسماء:

- يا رب حنن قلب السمك علينا.

أمسك بمجدافيه في طريق العودة، على أن يعاودوا جمع شباكهم فجرًا، منصتًا لابتهالات النقشبندي:

- مولاي إني ببابك.. قد بسطت يدي.. من لي ألوذ به إلاَّك يا سندي؟

تودد (ماهر) لأبيه مشيرًا ناحية الشاطئ:

- معلش يابا؛ أقطع بوصة من جنب العوامة.

غير اتجاه القارب:

- أما نشوف أخرتها معاك يا سي (ماهر).

●●●

obeikandl.com

(٢)

وثب وثبة فهد عند اقترابهم من الشاطئ، جذب أحد أعواد الغاب الجاف المشوق، جز (قصبة) منها ودسها في قميصه، ملأت البهجة صدره عائدًا بصيده الثمين.

صمت (الراديو) فجأة، حاول أبوهم إعادة تشغيله، إلا أنه لم ينطق، دسَّه في (سيالة) جلبابه عندما سمع صوت (سارينة) زورق شرطة المسطحات المائية متجهًا نحوهم يشق صفحة النيل، أسرع (يسري) بالجلوس إلى جانب أبيه، أمسك كل منهما بمجداف محاولين جذب قاربهم بعيدًا، إلا أن توترهما لم يمكِّنهما، رمقهم الشرطي الواقف في مقدمة الزورق بنظرة وصوت حاد:

- رخصكم.

نهض الأب متوجهًا نحو مقدمة القارب، مد يمينه داخل جلبابه مخرجًا من الصديري محفظته، وقدَّم رخصته بابتسامة متملِّقة تملأ وجهه:

- إحنا في السليم يا بيه.

obeikandl.com

تفحّص وجوه من على متن الزورق، رفع صوته ضاحكًا:

– مرحب (ح الصول عبد القادر).

– إيه اللي وقّفك هنا (يا رزق)؟ مش عارف دي عوامة مين؟

– الواد (ماهر) اللّه يجازيه بيحب المزِّيكا زي ما أنت عارف.

نظر في جوف محفظته، مد يده فيها، وأخرجها مضمومة، ووضعها في يد الشرطي الممسك بالرخصة، مخاطباً (الصول عبد القادر):

– يومك نادي يا باشا.

– ماشي يا (ريس رزق)، رجَّع له الرخصة، مش عايز أشوفك هنا تاني.

عاد الزورق من حيث أتى قبل أن يسمع جوابه، جلس (رزق) في مقدمة قاربهم المتأرجح، رامقاً (ماهر) المتكور عند نهايته:

– آدي اللي بناخده من المزيكا.

قاطعه (يسري) وهو يجدف عائدًا:

– حصل خير يابا، ما أنت عارف (عبد القادر)، ما بيعتقناش في الراحة والجاية.

openkanal.com

(٣)

جلس (صول عبد القادر) في باطن الزورق، أمامه كومة من العملات الورقية، صنّفها كل فئة على حده، فتح له (الأونباشي[٢]) زجاجة مياه غازية وعينه تسبق في العد يد (عبد القادر):

– طرِّي على قلبك يا (ح الصول)، الغلة اليوم تمام.

أخذ منه الزجاجة، ووضع في يده لفافة من الفئات النقدية الصغيرة، مشيرًا بأطراف أصابعه دائريًّا:

– إنت وزمايلك.

دق هاتف (عبد القادر) وأخرجه من سترته، واضعًا مكانه نصيبه من النقدية:

– ألو.. الكتب حاشتريها الليلة، لازم تدخلي طب، وتبقي أحسن من بنت المأمور.

٢- أونباشي : رتبة عسكرية تعادل رتبة العريف. والكلمة تركية، مركّبة من لفظين هما «أون» أي عشرة، و«باشي» أي رأس، والمعنى «رئيس عشرة».

obeikandl.com

(٤)

رسـوا بجـوار قـارب العائلـة ذي الأربعـة أمتـار طـولاً ومتريـن عرضًـا ، حيـث المحيـا والمنـام، تجلـس الأم في قاعـه بوزنهـا الزائـد وشـعرها الأشـيب المتـواري أسـفل (العصبـة)، أمامهـا علبـة مـن الصفيـح مغلقـة مـن ثـلاث جوانـب حاجبـةً الهـواء عـن (وابـور الجـاز) المسـتقر بداخلهـا، تطهـو فوقـه حلـة (أرز)، تتصاعـد أبخرتـه الشـهية، بجوارهـا زوجـة (يسـري) التـي لـم تتجـاوز العشـرين بعـد، تنظّـف أعـواد الجرجيـر.

تمرجـح القـارب عنـد جلـوس (الريـس رزق) و(يسـري) في المقدمـة، وسـير (ماهـر) بطـول المركـب للجلـوس خلـف أمـه، رامقـًا زوجـة أخيـه الجالسـة بالقـاع في طريقـه، قبضـت علـى ياقـة جلبابهـا وضمتهـا حـول عنقهـا حتـى تجاوزهـا.

كشـفت (أم يسـري) غطـاء الحلـة متلفتـةً حولهـا، أمسـكت بطبـق وملعقـة، وبـدأت في الغـرف، رفعـت صوتهـا متغلبـة علـى ضجيـج (الوابـور):

– مالك يا (أبو يسري)؟

نظر خلفها، قائلاً:

- (الصول عبد القادر)...

مدَّت يدها في جوف القارب وأخرجت سمكة مشوية، وضعتها فوق طبق الأرز الممتلئ، أخذته زوجة ابنها، نفضت عودين من الجرجير، وضعتهما بجوار السمكة:

- خد يابا.

لمحت الأم بطرف عينها (رزق) غير المقبل على طعامه، فأطفأت (الوابور):

- ربنا يعوَّض عليك.

●●●

obeikandl.com

(٥)

أسدل الليل ستاره على صفحة النيل المضاءة بالأضواء المتكسرة على أمواجه المتهدلة، يؤرق مضاجعها القوارب العملاقة الذاهبة والعائدة على صفحته، سحب (الريس رزق) رشفة من كوب الشاي:

– البحر زحمة الليلة!

علقت عيني (يسري) بظهر قارب ذي طابقين، متابعًا فتى وفتاة متقاربين يمسك كل منهما بيد الآخر، مجيبًا أباه دون أن يدير عينيه عنهما:

– راس السنة يابا.

استمر في رشف الشاي وبقية الأكواب مرفوعة على أفواه أسرته، والأعين عالقة مع سريان القارب ذي الطابقين، أخرج (الريس رزق) من جيبه (الراديو) خبط على ظهره، لم ينطق، أخرج بطاريتيه، ضغط على منتصف الأولى والثانية بأسنانه دافعًا الكربون نحو الأطراف ثم أعادهما، دب صوت الحياة في الراديو، انفرجت أساريره باحثًا بين موجاته الإذاعية موجِّهاً مؤشره يمينا ويسارًا - كما يوجه دفة قاربه - حتى استقر على إحداها، رفع صوت الراديو محاولاً جذب انتباههم:

- أعزائي المستمعين، كل سنة وأنتم طيبين، نرحب بكم في أمسية خاصة بمناسبة رأس السنة، نستمع اليوم إليكم أكثر مما تستمعون إلينا، وسؤالنا لكل المتصلين:

- ما هو حلمك للعام القادم؟

- والآن مع المطرب (عبد الحليم حافظ) في أغنية (بحلم بك) في انتظار اتصالاتكم.

لمعت أعين (الريس رزق):

- إيه رأيكم يا ولاد كل واحد يقول حلم نفسه يحققه السنة الجاية؟

أصابت أعينهم نفس اللمعة، نظروا لأنفسهم مجيبين بصوت واحد:

- موافقين.

مد (الريس رزق) يده بكوبه الفارغ:

- ولعوا لنا على دور شاي، نبدأ بمين؟

انتفض (ماهر) من مكانه واقفًا :

- آني يابا.

obeikandi.com

هـز (الريـس رزق) رأسـه موافقـًا، أخـرج (ماهـر) قصبـة الغـاب مـن داخـل قميصـه، جلـس بجـوار أمـه، ومـد يـده بهـا نحـو النـار المنبعثـة مـن (الوابـور)، وهـو يلفهـا دائريًّـا للإمـام والخلـف، محرقـًا الزوائـد التـي حولهـا:

– عارفة يا أمه، نفسي أدخل المدرسة، واتعلم المزيكا.

قاطعه (الريس رزق) ساخرًا:

– جتـك نيلـة في خيبتـك، عايـز تسـيب (كار) أبـوك وجـدود جـدودك، وتلـف ورا الغـوازي بزمّـارة؟

سخروا جميعًا بضحكات مكظومة من (ماهر).

– قولي أنت يا (أم يسري).

لم يرفـع (ماهـر) عينيـه عـن (قصبته) بعدما أتم (تجليسـها) على النـار، أمسـك بسـكين، محـاولاً فتـح ثقـوب بطـول القصبـة، رفعت أمه (بـراد) الشـاي عـن النـار، وصبـت المـاء في الأكـواب واسـتدارت خلفهـا مخرجـة علبـة السـكر مـن جـوف القـارب، وقامـت بتلقيـم الأكـواب:

– آني نفسي في بوتوجاز.

نبتـت علـى ثغرهـا ابتسـامة خجلـة، وهـي تذيـب السـكر في الأكـواب:

obeikandi.com

- نفسي أطبخ وآني واقفة.

داعبها زوجها:

- يا (ولية) أنت الصاري بتاعنا، ياما سندت ضهري عليكِ.

وجّه دفة الحوار ناحية (يسري) متجنِّبًا ملاقاة عينيها:

- وأنت يا (يسري)؟

أمسك بكوب الشاي من يد زوجته بعد لحظة صامتة:

- اتربِّيتي على إيدي، رش الميه كان لعبتنا، كبرنا ومهرك كان الفلوكة دي ـ مشيرًا نحو قارب صيدهم المجاور ـ وفاتت سنة.

نظر بعيدًا نحو البواخر التي تجوب النهر ومن خلفها الكازينوهات الممتدة على الشاطئ الآخر..

- عارفة يا بت، كان نفسي نقعد هناك أيام الخطوبة في أي كازينو، نمسك إيدين بعض ونبص للميه، وفي آخر القعدة أطلَّع كم جنيه من جيبي معرفش عددهم، وأسيبهم على الترابيزة ونمشي.

مسح وجهه بكفه..

- طول عمري عايش هنا في النيل، بس نفسي أعرف اللي بيقعدوا هناك بيحسوا بإيه.

ربطت زوجته على يديه بأعين ودودة، قطع (الريس رزق) نظراتها قائلاً:

- وأنتِ نفسك في إيه؟

نظرت لموضع قدميها، هزت رأسها بخجل:

- أنت الأول (يابا).

تطلع (الريس رزق) نحو زوجته وهي تعيد أدوات مطبخها أسفل القارب، و(ماهر) ينظف ثقوب القصبة بعناية، تجاوزهما نحو الفراغ، شرع في لملمة زكرياته وأمنياته:

- البحر زمان كان فاضي علينا، والرزق ياما، حتى الصيادين كانوا بيحبوا البحر، والنيل يديهم سمك على قد حبهم.

ضحك ساخرًا:

- حتى زمان مكانش في (الصول عبد القادر)، بس السمك قل، والزريعة بياخدوها للمزارع، حتى الزبون مابَقاش بيفرق بين سمك المزارع والسمك النيلي.

obeikandi.com

التفتَ بنظره نحو قاع النهر:

– نفسي لما أموت تربطوا على بطني حجر وترموني هنا.

قاطعته زوجته:

– حِسَّك في الدنيا يا (أبو يسري)، ربنا يخليك لينا.

رأى على وجهها ابتسامة حزينة، تبعتها كسرة عين، مدعية الانشغال بمراقبة (ماهر) وهو يضع سيخًا داخل القصبة، يدفعه للأمام دخولاً وخروجًا لإزالة العوائق بداخلها.

خفض (الريس رزق) رأسه متشاغلاً برفع صوت الراديو، عاقدًا حاجبيه، مبديًا الاهتمام بما يسمع:

– نستمع الآن أعزائي المستمعين إلى أغنية الذكريات (ليه يا بنفسج) للمطرب (صالح عبد الحي).

انفرجت أساريره، قائلاً بصوت باسم:

– شوفت (سي صالح) بيغنيها وأنا عَيِّل في (الدهبية) اللي كانت بعد كوبري عباس.

دندن مع الأغنية مستدعيًّا ذكرياتها، متمايلاً يمينًا ويسارًا، إلا أن الراديو صمت فجأة.. خبطه على ظهره مرات ومرات،

obeikandi.com

محاولاً إخراج صرخة الحياة مثل (القابلة) من وليد تلقفته على يديها.. لكنه لم ينطق.

نظر (الريس رزق) للسماء بأعين تملئوها خيبة الأمل، بعدما انقطع حبله السري بالحياة..

- الحجارة خلصت.

وضع (ماهر) فوهة القصبة بعدما أصبحت (نايًا) في فمه عازفًا لحن الأغنية، ارتسمت ابتسامة وَجِلة بين الحزن والرجاء على وجه أبيه، مسترسلاً مع ذكرياته:

- حُسنك في كونك.. بلونك.. تبهج المقهور.

أسدل جفونه عن الراديو مغنيًا:

- اللي يخونه.. سميره.. في الظلام مكسور.

- ليه يا بنفسج.. بتبهج.. وأنت زهر حزين.

غلب على غنائه ضجيج باخرة نيلية ضخمة، تمخر في زهو صفحة النيل، تاركة خلفها أمواجًا عالية تؤرجحهم.. أدارت زوجة (يسري) وجهها نحو خيالات أضواء العمارات المتكسرة على صفحة النيل:

- آنــي كل مــا أخــد الســمك علشــان أبيعــه في الســوق، بخــاف أدوس ع البــر ومــن نــاس البــر، بــس عارفــين أنــا نفســي في إيــه؟.. نفســي أســمع رزعــة بــاب.

التفتت نحو زوجها واضعة عينيها في عينيه:

– أيوه.. رزعة باب.

٢٠١٢/١٠/١٠

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

جرافيتي

اعتاد الجلوس في العتمة، متكئًا على جدار بارد، لا يشاركه في عتمته هذا الصباح سوى شعاع ضوء نحيف، يأتيه عن يمينه مخترقًا نافذته ساقطًا على الجدار الأيسر، يتابع نموه وهو قابع في مكانه لا يحرك ساكنًا ، يلاحظ سقوطه من أعلى الجدار شيئًا فشيئًا، رآه شعاع ليزر يشق حجرته نصفين من شدة نحافته يقسمها إلى شقين، يزداد حجم شعاع الضوء دفأً وسمكًا وقت الظهيرة متوسطًا حجرته، لا تروواح عيناه ذلك الضوء، معتدلاً في جلسته استعدادًا لبدء العرض.

متخيلاً من اتساع شعاع ضوء الشمس شاشة فضية، يرى عليها ما يتمناه، يساعده في ذلك ذرات الغبار المتطايرة في الضوء، مشكلاً لوحات متحركة، تارةً يراها موجات بحر هادر، أو (شواشي) أشجار متلاحمة لا تختلف عن زهور القرنبيط، أو ملامح شخص افتقده منذ زمن يتجاذب معه أطراف الحديث، أو نظرات حادة لأحد المتسلِّطين عليه.. يملأ رئتيه بالهواء حينها ثم يخرج زفيرًا قويًّا يبعثر به تلك الذرات المتناثرة، معيدًا تشكيل المشهد من جديد.

شاهد اليوم نفسه في الثامنة من عمره، جالسًا على الأرض مع قطع من الصلصال مختلف ألوانه، يشكِّل زرافة من الصلصال لتجاور بقية حيواناته، سمع صراخًا أفزعه:

– ضياء.

سقطت رقبة الزرافة من فرائسه المرتعدة:

– نعم يا ماما.

– مش قولت لك تبطل شخبطة على حيطان البيت؟

أجابها حانقًا:

– حاضر.

مر أبوه من أمام حجرته، يحيط رأسه بكفيه مجفِّفًا شعره بالفوطة، أنزل طرفها عن عينه، ينظر له مبتسمًا مهوِّنًا عليه صريخ أمه.

رشف شربة ماءٍ متابعًا مشهده التالي، يقف مدرس لغته العربية في مرحلته الإعدادية أمام السبورة يشرح قواعد المبني للمجهول والمبني للمعلوم، واضعًا التشكيل على كل كلمة بأصابع الطباشير الملوَّن، وعينا (ضياء) لا تفارق يد مدرسه، كلما أوشكت قطعة طباشير على نهايتها، قذف بها في أحد الأركان، انقضَّ على تلك البقايا الملونة

obeikandl.com

فور سماع صوت جرس الحصة، تاركًا حقيبته خلف ظهره في طريق عودته من المدرسة وبقايا الطباشير لا تغادر سبابته وإبهامه، راسمًا خط باهت بطول كل سيارة يمر عليها في طريق بيته.

سحب (ضياء) نفسًا من سيجارته ونفخه، مازجًا دخانه بذرات الغبار مكونًا مشهدًا جديدًا، لمح فيه فتاة مثيرة في وضع خليع، وهو يرسمها على باب الحمام في مدرسته الثانوية، وكلما مسحت إدارة المدرسة رسوماته من الحمامات، أعاد رسمها بتفاصيل أكثر إثارة، تتبعت إدارة المدرسة صيته الذائع بين أقرانه والمعروف بينهم بلقب (ضياء بيكاسو)، ونال جراء شهرته أسبوع رفد.

جلس في حجرته يقرأ خطاب الرفد، استشعر خطوات أبيه من خلفه، تاركًا ظله على الخطاب، جذب أباه الخطاب، تاركًا بدلاً منه حقيبة وأدار ظهره خارجًا، فتحها ووجد فيها (أقلام خط شيني بألوان وأحجام مختلفة، علبة بخاخ رش أسود اللون يشبه المستخدم في دهان السيارات، بعض الأغطية التي توضع فوق البخاخ بأحجام متباينة، قطعة من الإِسفنج، وأشياء أخرى)، لحق أبيه بسؤال قبل أن ينعطف من باب حجرته:

– إيه ده يا هندسة؟

– أدوات جرافيتي.

تابع مستغربًا:

- يعني إيه جرافيتي؟

- دوَّر وأنت تعرف.

ركن (ضياء) رأسه على الحائط، سقطت من عينيه دمعة، مسحها، وأعاد النظر لشعاع الضوء، مُشاهدًا تفوُّقه في سنواته الأولى بكلية الفنون الجميلة، بعدما أصبح أحد القلائل الموهوبين في التعبير بخطوط قليلة عن أشياء كثيرة.. ممارسًا لهوياته ليلاً وخفيةً بعيدًا عن الأعين بالرسم على الحوائط، لا تفارق أذنيه سماعتان يصبان في رأسه موسيقى (الهيب هوب).

ضحك ساخرًا ثم أخرج الزفير الأخير من دخان سيجارته، مشكِّلاً المشهد من جديد، ليرى نفسه في سنته الدراسية الأخيرة، متجاوزًا برسوماته همومه الخاصة للتعبير عن هموم وطنه، مستخدمًا جدرانه أينما كانت، مستغنياً عن سماع الهيب هوب، ومردِّدًا أغنيته الأثيرية (اتجمعوا العشاق) عند بدئه في العمل مرات ومرات، حتى ينتهي من رسم حلمه بعرض الوطن.

عاد شعاع الضوء الساقط في حجرته نحيفًا مثلما بدأ أول الصباح، حادًّا ومدبَّبًا، متَّخذًا شكل القلم الشيني الذي أحضره له أبوه يومًا ما، نهض (ضياء) من مكانه محاولاً الإمساك بخيط

الضوء الأبيض ليرسم به على حائطه الأسود.. لكنه سمع صليل قيوده.

٢٠١٢/٤/١

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

ع الغربة

– الله أكبر.

قرأ الفاتحة، باكيًا .

– الله أكبر.

ثم نصف التشهد.

– الله أكبر.

دعا لأخيه الجاثم أمامه، غلب نحيب المصلين المكظوم على دعائهم، تهتز أكتافهم الفتيَّة مطأطئين الرؤوس، تجمعهم زمالة العمل في الغربة، يبكي أخاه في نعشه.. وهم يبكون أنفسهم في نعوشهم.

حمل جثمانه عقب صلاة الجنازة أربعة من زملائه بالعمل نحو سيارة الإسعاف، ومن خلفهم أخوه والبقية، نظر الحاملان للنعش بالمقدمة لبعضهما البعض، قال الأول للثاني بأنفاس متحشرجة:

– عاوز أروَّح على رجلي يا واد عمي.

obeikandl.com

دفـع الأخيـران النعـش في عمـق السـيارة، وأغلقـا البـاب، مـال الثالـث علـى الرابـع:

- لازمًا عرف بيتي في بحري.. وأعرف بيتك في قبلي.

حدَّق الرابع في عينـي الثالـث المتابعـة للإسـعاف المتجـه صـوب المطـار، قائـلاً:

- حاضر.

جلس علـى مقعـده بالطائـرة عائـدًا لبلدتـه في جـوف الصعيـد، وضـع يـده علـى شـاربه الكـث مسـتذكرًا كيـف علَّمـه أخـوه ربـط حـزام مقعـده في أولـى سـفرياته للخليـج حينمـا كان شـاربه مـا زال أخضـر، يجلـس اليـوم وحيـدًا، وأخـوه أسـفل منـه بقـاع الطائـرة، يرقـد في صندوقـه حامـلاً تذكـرة ذهـاب بـلا عـودة.

تعلّـم مـن أخيـه الأكبـر ربـط الحـزام علـى كل شـيء، متسـلِّحًا بتعليـم مهنـي متوسـط في آفـاق غربتـه، ألحقـه بأحـد المواقع الإنشـائية مشـرفًا علـى عمـال يتاجـرون بصحتهـم مـن أجـل قـوت يومهـم، لا تفـارق مخيلتـه إجابـة أخيـه علـى سـؤاله بعـد أول عامـين مـن الغربـة:

- ع نسافر مِيتَى مصر؟

- أمك أتوحَّشتك إياك؟

- بدِّي أشوفها.

- حداك صورتها، أمسكها في يدَّك وأنت بتكلمها ع التليفون، مش ع تنزل مصر إلا يوم فرحك.

اعتاد حياة الغربة مثلما أفنى أخوه سنوات عمره فيها، وكلما أخذه الحنين خاطبه راجيًا :

- كفايانا غربة يا خوي.

أجابه بنظرات يائسة:

- أنت مشوفتش حاجة، مصر بتكره ولادها، بوك حارب في (الاستنزاف[٣]) وخرج مصاب، وأخرتها جاعد في البيت مع الحريم.

فك حزام مقعده، حمل جثمان أخيه، استقبلته أعين جامدة جاحدة، دفنوه في بطن الجبل، ثم عادوا معتادين غيابه.

التقت عيناه بعيني زوجة أخيه لأول مرة، وهي جالسة بجوار زوجته تواسيها، قدَّم إليها حقيبة أخيه، أخذتها متوجهة لحجرة

٣- حرب الاستنزاف : استهدفت استنزاف الجيش الإسرائيلي في أعقاب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، وكانت البداية في معركة رأس العش ١ يوليو، ١٩٦٧، واستمرت المواجهات إلى أن انتهت بقرار من الرئيس عبد الناصر والملك حسين بقبول مبادرة روجرز لوقف إطلاق النار في ٧ أغسطس، ١٩٧٠.

obeikandl.com

نومها وفتحتها، أمسكت بجلباب زوجها ووضعته على وجهها، شمت رائحة عرقه التي ما زالت عالقة به.

توسّط ولدي أخيه في سرادق العزاء، متتبِّعًا مكالماتهما الهاتفية بين حين وآخر تأتيهما للعزاء من رفاق الجامعة، معقِّبين عليها بكلمات تقليدية جوفاء، شاهد من بعيد ابنة أخيه ذات السنوات الخمس، تلهو مع ولده وبقية أبناء الجيران بالقرب من سرادق أبيها، توجَّه إليها، حملها واحتضنها حانيًا، نظرت إليه ببراءة قائلةً:

- وين بوي يا عم؟

ختم ضابط الجوازات جواز سفره، وهو في طريقه عائدًا نحو طائرته شارد الذهن مغيَّبًا ومهمومًا بموقف زوجة أخيه بعد الأربعين :

- كِيف يا بنت الناس تاخدي عيالك وترحلي؟

- خالتي وخالتك، واتفرجوا الخالات، كفاينا لحد اكده.

- شوفتي منّا إيه زعّلك؟

- شوفت من أخوكم البخل والموت ع الجرش، كل سنتين ولا تلاتة يورِّينا وشُّه.

obeikandl.com

- الناس ع تاكل وشِّنا .. لا تمصَّخيها عاد.

- ولاد أخوكم كبروا، وعندهم اللي يكفيهم.

قرأت المضيفة رقم مقعده بالتذكرة، مشيرةً إليه بالذهاب نحو المؤخرة، جلس متمتمًا وهو يربط حزامه:

- مرتي أصيلة .. ما تعملش اكده.

٢٠١٢/٧/٣

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

نملة سُليّمان

(١)

صعّدتُ درجات السلم مهرولاً ، فتحت باب بيتي تاركًا حقيبة سفري على الأرض، ارتميتُ في حضن أمي، وجرت على خدي دمعة اللقاء.

- الحمد للّه إن ربنا مد في عمري لحد ما شوفتك.

بحثتُ في ملامحها عن أثر السنين:

- ما أنت زي الفل أهو.

- فضل وعدل، أوضتك زي ما هي بحطة إيدك والصباح رباح.

دخلتُ حجرتي حاملاً حقيبتي، مالت في جلستها تتبعني بنظراتها :

- عروستك عندي.

رأيتُ حجرتي مثلما تركْتُها منذ عامين، شرفتي المطلة على بنت الجيران، تتوسط دواوين فاروق جويدة الشعرية مكتبتي التي كوَّنتُها من باعة الكتب المستعملة، معتبرًا اصفرار ورائحة الورق

obeikandl.com

عنصرين مكمِّلين لمتعة القراءة، أسطوانات موسيقاي الكلاسيكية كما هي فوق مكتبي، وضعت الحقيبة فوق سريري، أصدرت ضلفة دولابي أزيزًا ، رتبت ملابسي على الأرفف.

استدرتُ عائدًا لأحضر المزيد، لمحت صورة ألصقتُها يومًا على وجه الضلفة الداخلي، التُقطِتْ في عيد ميلادي، أقف فيها مستشرفاً مستقبلي المنتظر، وزملاء الجامعة بجواري، حب نشأ منذ أول يوم بالجامعة، أدرتُ وجهي عنها مستمرًّا في إخراج ما في حقيبتي ذهابًا وعودة.. وكلما مررت على صورتها تأمَّلتُ ملامحها مخرجًا ما في جعبتي من ذكريات.

كانت الأجمل.. أو هكذا رأيت، شهدتْ صفحات أجندة المحاضرات على اعترافنا الصامت، أمسكتُ بالقلم، وكتبتُ:

- أحبك.

وكتبتْ هي:

- أحبك.

اعترفتُ واعترفتْ.. كتبتُ شعرًا متغزِّلاً في محياها، أمضيتُ حياتي الجامعية معها طولاً وعرضًا، موسيقانا كانت معًا، رحلاتنا معًا، ذاكرنا معًا، نجحنا معًا، كل شيء كان معًا، إلى أن جاء المحمِّل من الخليج بما لا قبل لي به.. والتقمها.

لـم ينتبـه لـي – الحبيـب المجهـول. لـم ينتبـه إلـى نملـة سـاقها حظهـا العثـر في طريقـه، كتلـك التـي كانـت في طريـق جيـش سـليمان الـذي سـمعها، لكـن القـادم بسـطوة مالـه وضـع حـدًّا للنهايـة، وقضـى علـى مـن عشـق، وأثـر وتأثـر، ورسـم مسـتقبله ومسـتقبلها، وطـئ النملـة.. وسـحقها.

أغلقـتُ دولابـي علـى ذكرياتـي، ركنـتُ حقيبـة سـفري خلـف بـاب الحجـرة، واضعًـا رأسـي علـى وسـادتي.. وغططـتُ في النـوم.

●●●

obeikandl.com

(٢)

وضعتُ حقيبة سفري المركونة خلف الباب منذ شهر مضى فوق سريري، أصدرت ضلفة دولابي نفس الأزيز، حملتُ ملابسي الجديدة التي لم يمنحني الوقت فرصة لارتدائها.. أعدتُ ترتيب حقيبتي ذهابًا وعودةً، مستذكرًا ما حدث خلال أجازتي.

التقيتُ بعروس رشحتها أمي، رفضتُها لاختلاف معايير الترشيح بيني وبين أمي، تكررتْ محاولات البحث عن بنت الحلال، رفضت بعضهن.. ورفضني بعضهن.

تذكرتُ محاولتي الأخيرة قبيل نهاية أجازتي، التقيتُ بوالد فتاة، رحب بي مانحًا لي بعض الوقت للقاء ابنته، كانت نموذجًا مثاليًّا لتلك التي أتمناها، حملتْ في ثنايا شخصيتها الكثير من صفات حبي القديم، جذبني منطقها وثراء شخصيتها.. لمحتُ في عينيها نظرة اغتراب احترتُ في تفسيرها، وجهتُ إليها سؤالاً مباغتًا:

- في حد في حياتِك؟

بُهتتْ.. وأجابتْ دون النظر إلي:

- أيوه.

- لسه موجود؟

obeikandi.com

– بابا رافضه لأنه غير مستعد ماديًّا.. وطلب مني أن أفكر بعقلي.

شرد ذهني، اليوم أنا في موضع جيش سليمان.. والآخر في موضع النملة، قطعتْ شرودي بسؤالها:

– أجيب لك شاي؟

– أكون شاكر لك.

تمتمت ببعض كلمات.. أأَسْتَميلها ثائرًا لكبريائي؟ أم أتحسس موضع قدمي مستجيبًا لصرخات نملة تستجير؟ عادت تحمل صينية الشاي:

– سكرك إيه؟

نهضتُ مودِّعًا بابتسامة حانية، رافضًا نظرية التاجر القادر على الشراء، ما عليه إلا أنه (يلف ويشيل).. أغلقتُ حقيبة سفري على محاولاتي المترددة.

ارتميتُ في حضن أمي، جرتْ على خدي دمعة الوداع.. حملتُ حقيبة سفري من على الأرض وأغلقتُ باب بيتي، ونزلتُ السلم متثاقلاً .

٢٠١٢/٥/١١

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

توكة شعر

– أجيب لِك إيه يا بنتي؟

وضعت في يده جنيهًا:

– توكة شعر.

ومضى شهر...

تركت زميلاتها الأكبر سنًّا بعد يوم شاق على باب معمل الحلويات، لفحت وجهها الخمري المتقيِّح نسمة شتوية باردة، أغلقت آخر أزرار (سُفرة) جلبابها الكستور الباهت خضاره، ورفعت بنطلونها الكستور السماوي لأعلى خصرها، ثم قبضت بيمينها على (ماهية الشهر) في جيب جلبابها، جذبت ضفيرتها المتدلية أسفل غطاء رأسها الأبيض، وتركتها فوق كتفها تلامس صدرها النابت، خطت نحو بيتها للأم المنتظرة وأخواتها الأصغر، يُصدِر حذاؤها البلاستيكي مع كل خطوة أصواتًا مخجلة.

توقفت في طريق عودتها أمام الواجهة الزجاجية لمحل (خردوات أبو لطفي)، مشاهدةً معروضاتها المتربة، َعلِقت عيناها بأول الرف العلوي، موضوع عليه دب أبيض ممسك بقلب أحمر، وبجواره أرنب وردي، يليه كلب بني، وفيل رمادي، أغمضت عينيها لثوانٍ متخيلةً

obeikandl.com

ملمسهم الناعم على خدها، وهي تلعب بهم ويلعبون بها، خيَّرتهم أيهم يفضل أن ينام جوارها؟ وتركتهم في عراكهم ليفوز أحدهم بالنوم في أحضانها.. نظرت إليهم بدلال وثقة بالنفس والسعادة مرسومة على وجهها، كتلك الابتسامة الدائمة على وجههم جميعًا:

-اخترت الأرنب الوردي.. ودانه الطويلة هتكون تحت خدي وأنا نايمة.

استفاقت عندما رأت على الرف الأسفل عدة ملاقط مختلفة الأحجام وعلب أدوات مكياج إحداها دائرية والأخرى مستطيلة، والثالثة على شكل قلب، شبت على أطراف أصابعها حتى رأت وجهها في مرآة العلبة المفتوحة، غرقت فيها حتى ظنت أنها تمسك بالملقاط تشذب وجهها، عقدت حاجبيها متألمة مع كل شعرة شاردة تنتزعها، أمسكت بالفرشاة وغمستها في لون وردي، ومررتها على خديها وبطول أنفها ورقبتها، أغمضت عينًا وفتحت الأخرى وهي ترسم ظلالاً أعلى جفونها بنفس درجات الألوان التي تضعها صديقاتها في العمل قبل نهاية يومهن، بدت أسنانها الصفراء خلف ابتسامتها العريضة عندما وقعت عينيها على قلم أحمر الشفاه، فتحته بروية متأملة صعوده اللولبي.. مررته على شفتيها حتى رأت ابتسامتها البراقة بلون دم الغزال في المرآة.

شاهدت في الرف التالي مجموعة أقلام مختلفة الجاف منها والرصاص، علب ألوان، كراسات رسم، تخيرت قلم رصاص أصفر ممحاته حمراء، أمسكت بالقلم والكراسة، ورسمت يومها.. في الصفحة الأولى تنظف معمل الحلويات بعدما انتهت هي وزميلاتها من الإفطار، في الصفحة التالية تجذب (جوال دقيق) من المخزن، والأخرى تنظف أوانٍ تكبرها حجمًا، ورابعة رب العمل يفرك شحمة أذنها بإصبعيه مشيرًا لبعض البقايا أسفل (العجانة)، وهو يمد قدمه متحسِّسًا الأرضية المبللة بعد المسح.

جذب انتباهها الرف الأخير بإكسسواراته النسائية، أقراط ألوانها زاهية وأخرى داكنة، يليها أساور وقلائد، وغوايش وتوك، عقدت حاجبيها متحيرةً.. هل القرط الطويل الأسود أنسب لوجهها الدائري؟ أم الفيروزي القصير؟ أأختار معه قلادة فضية؟ وجمت وهي تمسك بذقنها، حتى استقرت على قلادة فيروزية تليق على القرط، أومأت برأسها مؤكدةً حُسْنَ الاختيار.

أخرجت يدها من جيبها وقامت بعد (الماهية)، توغلت داخل محل الخردوات، نهض (أبو لطفي) المراقب لها منذ توقفت أمام محله يتابع أمانيها:

- أجيب لك إيه يا بنتي؟

وضعت في يده جنيهًا:

– توكة شعر.

٢٠١٣/٤/٣٠

●●●

obeikandl.com

الشارع العمومي

انعطفتُ بسيارتي داخل الشارع الجانبي، متتبِّعًا الأسهم الجيرية المشيرة إلى محلِّه، أخذتُ شهيقًا معبأ بنسمات نيلية عليلة عند انحسار شمس الظهيرة الشتوية الدافئة، بعدما قطعتُ الزمالك[٤] طولاً وعرضًا بحثًا عنه، توقفتُ عند نهاية الأسهم المرسومة على الحوائط عند مدخل إحدى العمارات العتيقة، ممسكًا بحقيبتي البلاستيكية.

صعدتُ خمس درجات تتوسطن فناء المدخل، يتبعهن يمينًا صف من درجات السلم، تنحني عند نهايتها يسارًا تجاه الطابق الأول، يجلس أسفل الصف الأيسر في (بير السلم) رجل طاعن في السن، يستر صلعته بقبعة روسية سوداء من فرو الثعلب، مرتديًّا نظارة (كعب كوباية)، يجلس خلف مكتب صغير، مكَّنه قوامه النحيل من وضع قدم على الأخرى، هيَّأ فوق ركبته سترة سوداء (سموكن) بالية، ممسكًا بيسراه أحد أكمامها، يغرز بيمينه إبرة فيها خيط أسود، يرتق المرفق.

٤- الزمالك : أحد الأحياء الراقية في غرب القاهرة، ويقع على جزيرة في وسط نهر النيل، تُسمى «جزيرة الزمالك».

تـرك سـيجارته المشـتعلة في المطفـأة بجـوار مكـواة صغيـرة علـى مكتبـه الصغيـر ذي اللـون الأحمـر، المكتـوب علـى صـدره بخـط أبيـض كبيـر (رفـا أبـو وليـد).. يتسـرب دخـان سـيجارته نحـو جـوف (بيـر السـلم)، متماهيـًا فـوق ماكينـة الخياطـة، وبعـض الأرفـف المكدسـة بالملابـس أغلبهـا داكـن اللـون، يسـتدير الـرف مـع الحائـط يسـارًا منتهيـًا بمسـاحة كافيـة يسـتقر فيهـا راديـو قـديم، يتوقـف مؤشـره علـى إذاعـة (أم كلثـوم) علـى مقربـة مـن أذن (أبـو وليـد)، معلـق فـوق رأسـه علـى الحائـط (مصبـاح نيـون ٦٠سـم)، نظـر نحـوي حينمـا حاولـت إشـعاره بوجـودي:

- السلام عليكم.

طعـن سـن الإبـرة في كـم السـترة، دافعًـا بإصبعـه نظارتـه مـن منتصفهـا نحـو عينيـه:

- وعليكم السلام.

مـددتُ يـدي في قـاع حقيبتـي مصـدرًا أزيـزًا نفـر منـه، ابتسـمتُ في وجهـه مقدمًـا (أفارولـي الكحلـي)، ومشـيرًا نحـو مـزق في منتصـف ركبـة البنطلـون يشـبه حـرف (L):

- لو سمحت إرفيه.

تفحصه بعين الخبير قائلاً :

– قطع ضبة ومفتاح؟

– نعم.

تحسس ملمس القماش حول القطع ملاحظًا جفافه، ابتسم ساخرًا:

– أنت رشيت عليه البودرة إياها؟

نظرتُ نحوه خَجِلاً :

– أنا مقيم في الصحراء، ولازم أتصرف.

مط شفتيه متفحصًا (الأفارول) من داخله، حتى أمسك أحد الجيوب الداخلية مقارنًا بين حجم الجيب وحجم القطع:

– البودرة بتشيط القماش والقطع بيرجع تاني، بس حظك حلو، فوت بعد أسبوع ...

قاطعته قبل أن يتم كلامه:

– أنا مسافر (العوينات[٥]) بكرة آخر النهار، ولازم آخد (الأفارول)، واللي أنت عايزه أدفعه.

٥- العوينات : جبل العوينات (١٩٣٤ مترًا) سلسلة جبلية تقع في المنطقة الحدودية بين كل من (مصر، ليبيا، والسودان).

obeikandl.com

رمقنـي بنظـرة كتلـك التـي تفحـص بهـا القطـع، مـدركًا صـدق كلامي:

– مش مسألة فلوس، اقعد هخلص اللي في إيدي واعملهولك.

جلسـتُ أمـام مكتبـه علـى مقعـد مـن الخيـزران لا يتـواءم مـع شـكل المـكان.. سـحب مـن سـيجارته نفسًـا طويـلاً، أمسـك بإبرتـه يتمـم مـا كان فيـه، سـيطر علـيَّ فضـول مهنتـي الصحراويـة متأمِّـلاً كل مـا أراه بأعـين مجهريـة، تابعتـه وهـو يغـرز الإبـرة بخيطهـا الأسـود في طـرف الثقـب، ويجـره نحـو الطـرف الآخـر منـه، كـرر تلـك العمليـة بشـكل عرضـي عـدة مـرات متراصـة، مندمجًـا مـع أم كلثـوم وهـي تغنـي «يَسْـهَرُ المصبـاحُ والأقـداحُ والذكـرى معـي ... وعيـونُ الليـل يخبـو نورهـا في أدمعـي[٦]».

هـز رأسـه يمينًـا وشـمالاً، محرجـاً زفيـره المعبـأ بدخـان سـيجارته، التفـت إلـيَّ قائـلاً:

– لا مؤاخذة.

– ولا يهمك، أنا كمان بدخن.

أخرجـتُ سـيجارة مـن علبتـي وأشـعلتها، رفـع الكـم والإبـرة إلـى فمـه يقطـع خيطهـا بأسـنانه، وعينـاه معلقتـان بعلبـة سـجائري

٦- أغنية (قصة الأمس) غناء أم كلثوم، كلمات أحمد فتحي، ألحان رياض السنباطي.

المستوردة وأنا أضعها في (جيبي)، قَلَبَ ياقة السترة السوداء، سحب من نسيجها خيطًا أسودًا ولضم به الإبرة، عائدًا إلى نفس الثقب، يجذب أطرافه ولكن هذه المرة طوليًّا، تصدر منه بعض الابتسامات غير المبررة بين حين وآخر، معيدًا النسيج إلى ما كان عليه، لمحني بطرف عينيه الضيقة، تشاغلتُ عنه بالنظر للأرض، شد الإبرة بقوة حتى اندمل الثقب، غرز سن الإبرة في الكم مرة أخرى قائلاً :

-عدم المؤاخذة يا أستاذ.. أول مرة أشوفك هنا!!

– فعلاً..أنا وصلت على السمعة، قالوا لي محدش هينجدني غيرك؟

– المُنجِد ربنا، حضرتك بتشتغل إيه؟

– مهندس.

دقق النظر غير مكتفٍ بإجابتي:

– كمِّل؟

أشفقتُ عليه قائلاً:

– أنا شغلي في الصحرا بس مش بتاع بترول، أنا يا حاج بتاع طوب وزلط.

عقب مبدياً تفهمه:

- جيولوجي يعني؟

تعجبت من دقة تعبيره:

- بالظبط.

عاد للنظر إلى ثقبه وابتساماته:

- أنْعِم وأكْرِم.

قطع الإبرة بخيطها الأسود بعدما أعاد نسيج ثقب السترة البالية، أخذ نفسًا عميقًا، جاذبًا طرف خيط من بكرة بيضاء، صانعًا دائرة بخيطه الأبيض حول الثقب ذات غُرز واسعة وابتساماته المتلاحقة لا تنقطع، ثنى السترة بود، وأودعها في كيس أحمر باهت أسفل المكتب، وخبت مع السترة حالة البهجة التي تعتريه، وقبل أن يشرع في العمل (بأفارولي)، سمع (نفير) سيارة فارهة، توقفتْ أمام المدخل تمامًا تحمل لوحات (هيئة دبلوماسية)، هرول (أبو وليد) نحوها منحنيًا أمام زجاجها المعتم، انخفض شباكها، فاحت منه رائحة عطور باريسية، استرقتُ السمع محاولاً فهم ما يدور هناك:

- Bonsoir, Abou Walid[٧].

٧- مساء الخير، أبو وليد.

Bonsoir, Madame[8]..

امتدت يد بضة من خارج السيارة بمعطف وردي:

.Il Des Trous Dans Le Manteau.[٩]

أخذه منحنيًا:

-Avec plaisir. Salutations à Son Excellence l'Ambassadeur.[١٠]

بادلته التحية بابتسامة فرنسية، ورحلتْ، صعد الدرجات الخمس وهو يفتش في جانب المعطف عن ثقوبه، هز رأسه بعدما تأكد من حسن توقعه:

– العتة مبتخليش، حتى بالطو مرات سفير فرنسا.

ثنى المعطف على ظهره بتأدب بالغ، مفسحًا له مكانًا في صدر الأرفف، كأنما يجلس زوجة جناب السفير في مكانها اللائق بين زبائنه، عاد لمقعده وهو ما زال على تأدبه، تأملته قائلاً:

– تعرف فرنساوي؟!

٨- مساء الخير، سيدتي.

٩- هناك ثقوب في المعطف.

١٠- بكل سرور، تحياتي لسعادة السفير.

obeikandl.com

ضحك مقهقهًا، وهو يضع (أفارولي) فوق ركبته:

– وإنجليزي وجريجي وطلياني كمان.

لاحظ علامات الذهول على وجهي، تابع مفسرًا :

– في أيام غير الأيام دي، كانت الزمالك ولا الأمم المتحدة.

هز رأسه متأسفاً:

– آدي حال الدنيا.

– لسه عندك زباين أجانب؟

نظر لأعلى مقلبًا في ذاكرته نحو سقف المدخل المزخرف بلوحة زيتية لفتيات لا يسترهن إلا قليل من الثياب يشربن من نهر أبيض..

– الست فرنشيسكا الطليانية.

– ست! هي عجوزة؟

دارى سنوات عمره، قائلاً:

– من دوري..

قص جزءً من أحد الجيوب الداخلية (للأفارول)، متأكدًا من انتباهي لما سيرويه:

obeikandl.com

ـ آخر مرة شوفت فرنشيسكا، كانت جايبة فستان سواريه بتلبسه من السنة للسنة، ويوم ما استلمته كان معاها ديك رومي صاحي، طايرة من الفرحة علشان ولادها وأحفادها جايين من إيطاليا يقضوا معها راس السنة.

أشعلتُ سيجارة، وقدمتُ له الأخرى، وهو مستمر في سرده:

–وزي كل سنة يوم واحد يناير.. تنزل م النجمة، لابسة فستانها السواريه، وابتسامة خيبة الأمل مرسومة على وشها، ومكياجها سايح تحت عينيها، والدندي متكتف في رُزه، توزعه علينا أنا وعم إبراهيم اللي على الناصية وخليل البواب.

لمحتُ نظرة حزينة مختلطة بالحيرة في عينيه، مسترسلاً:

– يا ترى هتجيب فستانها السنة دي.. أرفيه؟

قطع حديثه شاب قوي البنيان في أواسط العشرينات، توقف على الباب وفي يده سلسلة مفاتيح متدلية يلفها حول أصبعه:

– مساء الخير يا حاج.

مد يده أسفل المكتب مخرجًا الكيس الأحمر الباهت:

– خد يا (وليد) جاكت عمك (بهجت) المونولوجست الله يحفظه.

تبسمت مدركًا سر ضحكاته المكتومة كلما تذكر نكات صاحب السترة، وأكمل (أبو وليد):

- وقوله يكوي دايرة (السراجة) البيضا علشان يفرد النسيج، وخد منه خمسة جنيه بس.

أمسك بالكيس منصاعًا:

- حاضر يا بابا.

أثار الفارق السني الكبير بين (أبو وليد) وولده فضولي:

- أنت اتجوزت كبير ولا إيه؟

تفرَّس ملامحي مدركًا مغزى كلامي:

- لا أبدًا، بس الواد جه بعد شوقة على أربع بنات.

وضع قطعة القماش المقصوصة من الجيب فوق الركبة الممزقة، ممتنًّا لنفسه عندما وجد حجمها يداري القطع تمامًا، تحرك بكرسيه نحو ماكينة الخياطة لسد الجيب الداخلي، بحثتُ عن جملة أقتل بها ملل الانتظار:

- تعبتك معايا.

- أهم حاجة في شغلتنا الصبر وطولة البال.

obeikandl.com

أبديت إعجابي بتفانيه:

- أنت ولا بتوع الجيولوجيا يا حاج.

- متآخذنيش.. محصَّلة بعضها، أنت في شغلك بتدوَّر على الصخور النادرة علشان تظهرها للناس.. وأنا في شغلي بدور على العيوب علشان استرها عن عيون الناس.

لم أعقِّب .. باحثًا عن أفق آخر للحوار:

- أنا قولت أفارولي مش هينفع تاني.

- ياما ورد علينا.

- بيجيلك حاجات زي كده؟

- متعدِّش.

- طب إيه أغرب قطع جالك؟

أوقف ماكينة الخياطة فجأة، ورمقني متجاوزًا وجودي ناظرًا نحو الفيلا المقابلة لباب المدخل، ثم عاد يحيك الجيب:

- (الملازم رؤوف البنداري).. كان شاب خِرِع لحد ما راح الحربية.

لم أبدِ أي رد فعل، مستخلصًا نبرات صوته المتحشرجة من بين صوت أم كلثوم وماكينة الخياطة:

- جالـي المحـل وراسـه محنيـه في ليلـة مـن ليالـي (٦٧) وفي إيده بدلـة ميـري، رفعـت الجاكـت في النـور أشـوفه مـن غيـر مـا عينـي تيجـي في عينـه، لقيـت خمـس خـروم بطـول الضهـر والمسـافة اللـي بينهـم واحـدة تقولـش بالمسـطرة، بـس مـا كانتـش بدلتـه، أصلـه سُـفيِّف ودي بتاعـة واحـد جِـرِم.

- وبعدين ؟

- طلـب منـي رفي الخـروم، وتقييـف البدلـة علـى مقاسـه... حالتـه مـا كانتـش تسـمح لـي أسـأله، إطَّقَّسـت، وعرفـت إن حضـرة المـلازم لمـا اترحَّـل لـ (الحَسَـنة[11]) كان مسـخرة دفعتـه، بسـبب حـي الزمالـك، ربـك بعـت لـه (النقيـب عبـد الصمـد)، وقـف جنبـه، واتعلـم (رؤوف) معنـى التـار عنـد الصعايـدة مـن حـكاوي (عبـد الصمـد)، واتعلـم (عبـد الصمـد) ازاي يـاكل بالشـوكة والسـكينة مـن (رؤوف).

حـرك كرسـيه بعدمـا أنهـى عملـه علـى ماكينـة الخياطـة عائـدًا إلـى مكتبـه، هيـَّأ (الأفـارول) علـى ركبتـه مسـتهلاًّ رفيـه، وتابـع:

- وجت غـارة إسـرائيلية علـى (الحَسَـنة)، أخـد (عبـد الصمـد) في حضنـه (رؤوف) والطلقـات في ضهـره.

١١- الحسـنة : مركـز الحَسَـنة، مدينـة مصريـة تقـع في وسـط سـيناء بمحافظـة شـمال سـيناء.

obeikandi.com

- بس (رؤوف) ما سابوش للديابة تنهشه، رجَّع جثته لأهله، وأخد منهم بدلته الميري.

فتحتُ علبة السجائر، واقتسمتُ معه آخر سيجارتين:

- وفي نهار (٧٣) لمحته خارجًا من بيته في بدلة (عبد الصمد).. عرفتها من ضهرها.. أصل الواحد ما يتوهش عن شغل إيده.

أخرج زفيرًا ثقيلاً من صدره، قائلاً:

- وأخد (عبد الصمد) معاه، علشان ياخد بتاره.

ترقرقت دمعة في عيني، عللتها بدخان السجائر، وهو مسترسل في حكيه:

- وجالي المحل مرة تانية بعد الحرب بدر منور، أرفي له البدلة من قطع صغير في الكتف، بس المرة دي كانت رأسه ورأسي في السما.

أشار وهو منهمك في عمله بيده نحو باب المدخل:

- فيلا لواء أركان حرب (رؤوف البنداري)، هي اللي قدامنا.

نهضتُ من مقعدي انظر نحو الفيلا في إجلال وإكبار، لمحتُ نور الحجرة المقابلة يُضاء، ويد تفتح مقبض باب الشرفة الصدئ،

obeikandl.com

خرج للشرفة مسن يتوكأ على عصاه، جلس على مقعد بالزاوية، ينظر بشجن وحنين لحائط الحجرة المعلق عليه (فاترينة) زجاجية بداخلها بدلة عسكرية.

رفى (أبو وليد) نصف الرقعة منكفئًا عليها، غير قادر على النطق.. مثلما أضحيتُ غير قادر على الاستماع، تعللتُ بقراءة رسالة على هاتفي، متجاوزًا المشهد أثناء هبوطي السلمات الخمس:

– مضطر أمشي، أمر عليك في طريقي قبل السفر.

مال برأسه نحو كتفه الأيمن:

– بس الاستلام، من محل (وليد) ابني في الشارع العمومي جنب (برج السعادة).

٢٠١٣/٣/١٩

●●●

openkamal.com

أصلان أيضًا.. ودائمًا II

(١)

تعرفتُ عليه كاسم من خلال فيلم سينمائي مأخوذ عن نص أدبي له، أدركتُ حينها أنه مختلف، رأيتُ مقالاً له بعد سنوات خانتني الذاكرة حينها إن كان هو أم لا؟! تتبَّعتُ مقالاته، تكلم في إحداها عن بطل روايته الفيلمية كشيء أشبه بالتتمَّة لما جاء ذكره من قبل، لهثتُ خلفه على الإنترنت متتبعًا خطوات صاحب رواية (مالك الحزين).

وجدتُ أن ما كُتب عن الكاتب الكبير (إبراهيم أصلان) أكثر مما كتبه هو، أصبحتُ كأحد مريديه متشوِّقًا لمقالاته الأسبوعية، تعرفتُ عليه عن كثب على مدار سنوات عبر مقالاته، رافقتهُ في رحلاته المكانية (شرقًا وغربًا)، والزمانية منذ أن كان طفلاً إلى أن أصبح يافعًا بين رفاقه في إمبابة، لهوتُ معه على شاطئ النيل، سرتُ برفقته مع الشيخ حسني بطل (مالك الحزين)، حملتُ عنه حقيبة (البوسطة) في أول أيام تعيينه بمصلحة البريد، عشتُ لحظات خوفه وخجله وتأثرتُ بدماثة خلقه، ناولتهُ دواءه في مرضه، جلستُ على المقهى بجواره قريبًا له كظل شجرته التي في مكتبه.

أدركتُ محيط حياته، وأصبح أصدقاؤه أصدقائي، حزنتُ لمن مات منهم وفرحتُ لنجاحاتهم، عرّفته كذلك على أصدقائي وكل من حولي، فلم يخلُ مجلسًا لي إلا وكان حاضرًا معي، ذكرته لمن يعرفه ومن لا يعرفه، تأثرتُ مثلما تأثر هو بالمهمشين، شعرتُ بأنّاتهم تلمست أوجاعهم وداريتُ خزيهم، رأيتُ الناس من خلاله وأحسست بهم.

●●●

obeikandl.com

(٢)

حضرتُ أثناء إقامتي بالكويت فعاليات الأسبوع الثقافي المصري الكويتي في مكتبة عبد العزيز البابطين للشعر العربي العام الفائت، شارك خلالها الكاتب (جمال الغيطاني) بندوتين على يومين متتاليين، تناول في الأولى (كتاب وصف مصر)، وأثناء خروج (الغيطاني) عقب ندوته من القاعة إلى (اللوبي) تبعته تاركًا مقعدي بالصفوف الخلفية، وهو يحاور كثيرين من المتحلقين حوله، يستزيدون من فيضه، ترقبته مسترقًا السمع محاولاً تنقية نبرات صوته من بين همهمات المتزاحمين وضجيج (الهواتف النقالة)، لم تسنح لي فرصة الاقتراب منه أكثر من ذلك كي أبوح له بما يجيش في صدري.

اتَّخذتُ مقعدًا على مقربة من الصفوف الأمامية في اليوم التالي، وقال (الغيطاني) في ندوته الثانية التي كانت تحت عنوان (قاهرة نجيب محفوظ) إنه لم يخلص أديب لمدينة مثلما أخلص محفوظ للقاهرة، وأنها كحيز مكاني تعتبر حالة ثرية ثقافيًّا وتاريخيًّا وإنسانيًّا، لأن أحياءها تغوص بك في أعماق التاريخ بشكل أفقي من خلال أزمنتها المتجاورة، عقب الندوة كان الملتفون حوله أقل من أمس، دنوتُ منه بقدرٍ يسمح لي بتوجيه سؤال إليه:

- حضرتك بتشوف الأستاذ (إبراهيم أصلان)؟

باهتمام بالغ، هز رأسه مؤكدًا:

- أيوه بشوفه.

نظرت في عينيه.. ونظر في عيني، فقدت النطق للحظات.. كسر حاجز الصمت بكلمة:

- هقوله.

ابتسمت له مبديًا امتناني!! رغم علمي أن (الغيطاني) لا يعرفني.

●●●

obeikandl.com

(٣)

في أجازتي التالية قادمًا من الكويت لقضاء شهر رمضان في مدينة الألف مئذنة، عقدتُ العزم على أن أسعى للقاء (أصلان)، ولم لا التقي بمن تذوَّق مرارة الغربة مثلما تذوقتُها؟! لم لا أخبره بأنني هنا وأريد لقاءه؟! اتصلتُ بمكتب جريدة (الحياة) اللندنية في القاهرة بحي جاردن سيتي:

– ألو، لو سمحت ممكن تحولني على مكتب الأستاذ (إبراهيم أصلان)؟

– الأستاذ مش موجود، في أجازة لنص رمضان.

أصابني الإحباط بعض الشيء:

– طيب متعرفش ممكن يكون فين الأيام دي؟

– لأ.

– طيب ممكن رقم تليفونه؟

– حضرتك مين؟

– أنا... لأ هو ما يعرفنيش، بس أنا اسمي (وليد) جاي أجازة من الكويت ونفسي أقابله.

obeikandl.com

- آه.. والله ماقدرش أعطيك رقم تليفونه.

- طيب هتصل على نص رمضان ممكن يكون رجع؟

- إن شاء الله، مع السلامة.

ذهبتُ إلى بعض المصالح الحكومية بوسط البلد متأففًا من بيروقراطية الموظفين الذين لم تتغير عقولهم الإدارية ممسكًا على صيامي، بعد انتهاء مواعيد عمل المصالح الحكومية أخذتني قدماي إلى جولة في بعض مكتبات وسط البلد بداية من مكتبة (عمر بوك ستورز) في أول شارع طلعت حرب ثم (مدبولي) و(الشروق) في الميدان، خرجتُ من تلك الجولة بصيد ثمين لبعض الكتب حملتها في كيس بلاستيكي.

●●●

obeikandl.com

(٤)

طـال بـي التسـكع إلـى أن وصلـتُ إلـى مقهـى (ريـش) العتيـق الـذي ضـم بـين جنباتـه مبدعـي مصـر علـى مـدار قـرن ونصـف القـرن مـن الزمـان، مفكريـن، كتـاب، أدبـاء، وشـعراء، بـل إن زلـزال ١٩٩٢ كشـف عـن ممـر سـري إلـى سـرداب المقهـى بـه آلـة طباعـة اسـتخدمت لطباعـة المنشـورات السياسـية إبَّـان الاحتـلال البريطانـي لمصـر، ومـن بـين رواد (ريـش) عـم (إبراهيـم)، علمـتُ بهـذا ممـا قرأتـه منـه وعنـه.

خطـوتُ خطـوات داخـل المقهـى الخالـي في ذلـك النهـار الرمضانـي إلا مـن منضـدة يجلـس عليهـا بعـض الأجانـب، علـى يمـين البـاب مكتـب خشـبي ذي طـراز قـديم بنـي قـاتم، جلـس أحدهـم خلـف المكتـب يراجـع دفتـرًا أمامـه، وعلـى المقعـد المقابـل لـه يجلـس رجـل يقتـرب مـن السـتين، شـعره الأبيـض يلـف رأسـه مـن الجانبـين فقـط، ذو صلعـة براقـة، ممتلـئ قليـلاً، يرتـدي قميصًـا خفيفًـا نصـف كـم فـاتح لونـه يتـلاءم مـع ذلـك النهـار القائـظ، وبنطلـون أسـود يبـدو الوقـار علـى هيئتـه، يعـد عمـلات ورقيـة مـن فئـة المئتـي جنيـه، توجهـتُ بسـؤالي إلـى مـن يجلـس خلـف المكتـب:

- السلام عليكم، من فضلك الأستاذ (إبراهيم أصلان) بيجي هنا والله؟

- إبراهيم، إبراهيم مين!

تدخَّل في الحوار من يجلس أمامه، بصوت ينم على أنه صاحب سلطان هنا.

- أيوه بيجي.

- ما تعرفش والله على الساعة كام بيمر؟

تطلع إليَّ من أعلى إلى أسفل، توقفت عيناه على الكيس الشفاف الذي أظهر الكتب بداخله، معتقدًا أنني أحد المهووسين بالمشاهير:

- لأ مالوش مواعيد.

- يعني ممكن إمتى تقريبًا؟

عاد بنظره إلى عملاته الورقية بعدما أنهى عدها وبرمها دائريًّا إلى أن أصبحت بحجم السيجار.

- مافيش ميعاد محدد.

- متشكر، سلام عليكم.

obeikandi.com

مستمرًّا في عده وبرمه:

- وعليكم السلام.

●●●

obeikandl.com

(٥)

عاودتُ الاتصال بمكتب (الحياة) بعد منتصف رمضان:

– ألو، الأستاذ (إبراهيم) رجع من الأجازة ؟

– أيوه رجع.

– والله طب هو موجود؟

– لأ مش موجود، ثانية واحدة أديك رقم موبايله ؟

انتفضت في سعادة بالغة صامتًا:

– اتفضل.

– رقمه ٠١××××××××

– متشكر جدًّا.

وفي المساء:

– ألو، الأستاذ (إبراهيم أصلان)؟

جاءني صوت رخيم هادئ استشعرت الطيبة في نبراته:

– أيوه، مين معايا؟

obeikandl.com

- أنا والله اسمي (وليد) مقيم في الكويت وحاليًا في زيارة لمصر.

- أهلاً وسهلاً.

- سألتُ على حضرتك في (الحياة) وعرفت إنك رجعت من الأجازة.

- أيوه.

- ممكن أستأذن حضرتك في لقاء.

- خير؟

- أبدًا، والله بس أنا من قرائك ونفسي أتعرف على حضرتك .

- الأربع بعد الضهر كويس؟

- كويس، ممتن جدًّا لحضرتك.

- مفيش أي حاجة.

- مش قادر أوصفلك سعادتي إني سمعت صوت حضرتك.

- متشكر، متشكر.

●●●

obeikandl.com

(٦)

طلبتـه وأنـا علـى مقربـة مـن جـاردن سـيتي قبـل الموعـد ولـم يـرد.. كررتهـا مـرات ومـرات دون جـدوى، عـدت مـن حيـث أتيـت، عـاودت الاتصـال مسـاءً:

– ألو (وليد) مع حضرتك، اتصلت الصبح حسب موعدنا.

– أيوه معلش.

– لـو تحـب حضرتـك ممكـن أقابلـك الليلـة في أي وقـت وأي مـكان يناسـبك.

– ظروفي مش مناسبة حاليًا توفي صديق لي اليوم.

– الله يرحمه.

– طيب خلينا على اتصال الأسبوع الجاي.

– أي يوم حضرتك تحب؟

– مش هتفرق أي يوم.

مضـت بضعـة أيـام وأوشـك رمضـان علـى الرحيـل، طلبتـه في أسـبوعه الأخيـر:

obeikandi.com

- اتصلت بحضرتك لتحديد وقت مناسب للقاء.

- الحقيقة مشغول جداً، عندي تكريم في (الشروق) والوقت صعب شوية، أنت كنت عاوز تقابلني ليه؟

- أبدًا - تلعثمتُ قليلاً وصمت هو للحظات تاركًا لي المجال محاولاً أن يستنطقني ـ نفسي أشوف حضرتك.

- خلينا على اتصال لما تسمح الظروف.

- إن شاء الله.

●●●

obeikandl.com

(٧)

مرت بضعة أيام وعاودت الاتصال مجددًا:

- أستاذ (إبراهيم).
- أهلا وسهلاً.
- معلش بعتذر لحضرتك الظروف ما سمحتش نتقابل، أنا في المطار وراجع للكويت.

صمت للحظات.

- ظروفنا إحنا الاتنين ما كانتش مناسبة.
- إن شاء اللّه تكون هناك ظروف ملائمة الأجازة الجاية.
- إن شاء اللّه.
- ربنا يديك الصحة ويخليك لنا يا أستاذ.

ساد الوجوم قليلاً.

- متشكر يا (وليد).. إن شاء اللّه نتقابل على خير.

انتهت المكالمة مع نهاية أجازتي.. سافرتُ مستعذبًا مخالطة لساني للسانه.

●●●

obeikandl.com

(٨)

إلى هنا انتهت القصة التي نُشِرت في مجموعتي القصصية الأولى (ليدي من وسط البلد) نوفمبر ٢٠١١ عن دار أخبار اليوم، والتي لم أذكر بها السبب الحقيقي وراء إصراري على لقاء عم (إبراهيم).. خشيتُ أن أذكره.. ربما تقع القصة في يده ويعرف ما وددت أن أحتفظ به لنفسي حتى أرويه عليه وجهًا لوجه.

والآن.. والآن تعني الآن.. في التو واللحظة.. سمعت خبر وفاة عم (إبراهيم) عن عمر يناهز ٧٧ عامًا، مع قدر من الديباجة التي تقال دائمًا في مثل هذه الأحوال كلما فقدنا أحد الأعلام.. ومر الخبر مثل أي خبر.. والآن أيضًا لم أعد قادرًا على كتمان سبب إصراري على هذا اللقاء.. ربما يسمع مني ما تمنيت أن أقوله له:

-عم (إبراهيم).. إزي حضرتك، إن شاء اللّه تكون في مكان أحسن، واللّه في جزء لم أذكره في كلامي من قبل، وهو إني بدأت في متابعة مقالاتك المنشورة على موقع جريدة الأهرام الإلكتروني كل (تلات) من سنة ٢٠٠٥، أه واللّه يا عم (إبراهيم) من ٢٠٠٥.

obeikandl.com

أصبح قراءة مقالك الأسبوعي أحد طقوسي الخاصة، كانت تمنعني ظروف عملي في بعض الأحيان من القراءة في نفس اليوم.. ولما كنت أدخل على (الويب) في اليوم التالي لقراءة المقالة على رواقة.. أجد أرشيف الأهرام مغلق وغير مسموح به إلا لمن يستخدم رقمًا معينًا لدخول الإنترنت، وكان من الصعب عليَّ الوصول لأرشيف الأهرام.

طرأت على ذهني فكرة، أن أنسخ المقال وأنقله إلى ملف (وورد) كلما حالت ظروف عملي دون القراءة لأستمتع بقراءته في وقت لاحق.. وهكذا يا عم (إبراهيم) ملف (الوورد) كبر، وعلى مدار سنين تجاوز الـ٤٠٠ صفحة.. آه والله تجاوز الـ٤٠٠ صفحة، تخيل حضرتك ممكن يكونوا كم أسبوع، وكم شهر، وكم سنة.

وفي إحدى مرات إضافة مقالة جديدة، طقِّت في دماغي فكرة مجنونة، قلت لما أنزل أجازة لمصر أنسخ نسختين من المقالات، أحاول أوصلك وأطلب توقيعك على نسخة منهم لي محتفظًا بها لنفسي للتفاخر بها أمام أولادي، وبأنني صاحب النسخة الوحيدة الممهورة بتوقيعك.

والنسخة التانية كان نفسي أقدمها لحضرتك.. يمكن دأبي على جمعها يدلل على مكانتك عندي.. لكن مع الأسف الظروف ما سمحتش.. زي ما أنت عارف.

مـش عـارف أقولـك إيـه والله .. مـع السـلامة يـا عـم إبراهيـم الله يرحمـك.

٢٠١٢/١/٧

•••

obeikandl.com

obeikandl.com

الدَّرَج الرخامي

(١)

- ألو؟

- تعالى بسرعة ماما تعبانة، أخوك في الطريق.

ارتديتُ ملابسي على عجل، مشتت الذهن، أرى خيالاتها تعدو أمامي مسرعة، وهي تدللني طفلاً تارةً.. وتقسو عليَّ مراهقًا تارةً أخرى.. لحظات الحزن بعد فراق الأب.. وزغاريد الفرح بعد التخرج من الجامعة.. لم يكن بيني وبينها الكثير من العمر عندما أنجبتني.. أكبر أبنائها، فأنا لها الأخ قبل الابن.. وهي الأخت قبل الأم.

التهمتُ درجات السلم والطريق مسرعًا، دلفتُ من باب بيت العائلة المفتوح على مصراعيه، بحثتُ عن الاطمئنان في أعين أخي وأختي الأصغر المتلعثمة، تجاوزتهما نحو حجرتها، وأول ما لمحتُ منها وهي مستلقية على سريرها صعود وهبوط صدرها، لم تستشعر وجودي حتى قبَّلتُ جبينها، التفتتْ نحوي غير قادرة على فتح عينيها، خاطبتُها متماسكًا:

- حجزت لك عند الدكتور، شوية تحاليل ونرجع.

obeikandl.com

اتسعتْ حدقة عينيها ناظرة في قاع عيني، رأيتُ منها نظرة الأخت لأخيها.. لا الأم لابنها، ملتُ على الأرض باحثًا عن نعليها، وضعتهما أمامها، حاولت إنزال قدميها.. لكنهما لم يستجيبا، لحق بي أخوَيّ، عاوناها حتى تمكنتْ من الوقوف، ثنتْ ركبتها للتقدم خطوة، لكن قدمها أصرت على خذلانها، حاولتْ وحاولنا.. دون جدوى، هرولتْ أختي بأعينها الدامعة، أحضرتْ مقعدًا من البلاستيك ذي مسندين يستوعب حجمها.

أجلسناها، ممسكًا بيد المقعد اليمنى وأخي باليسرى، تجاوزنا باب حجرتها، لا نسمع سوى ارتطامات ما تدفعه أختنا عن طريقنا، وطقطقات تصدر عن المقعد البلاستيكي بين لحظة وأخرى، قطعنا الصالة الرحبة ولم أرَ منها سوى بلاطها الأبيض والأسود المتتالي الباهت، تحلّق فوقه قدماها المتدلّيتان من المقعد دون حراك، تجاوزنا الباب البني المصقول العتيق، هبطنا بها ملامسين أولى درجات السلم بعدما تعالت أنّات وتصدعات يدي المقعد البلاستيكي، توقفنا لالتقاط الأنفاس اللاهثة، هز أخي رأسه يمينًا ويسارًا، قائلاً بصوته المتقطع:

- إيد الكرسي البلاستيك اتكسرت، هشوف كرسي خشب.

مالت برأسها ناحيتي قائلة بصوت خفيض:

- كلم النَّجار يصلَّح إيد الكرسي.

●●●

(٢)

ارتكنتُ بظهري إلى الحائط الرطب، انظر إلى عمق الدرجات الرخامية الملساء ناصعة البياض ، يطوقها سور حديدي مشغول بانحناءات انسيابية ودوائر صغيرة وكبيرة متربة، ربما مرَّ أكثر من عشرين عامًا منذ آخر مرة برمتُ فيها أصبعي بدوائره واحدة تلو الأخرى وصولاً إلى بدايته، لاحقتُ بعيني انحناءاته.. مستذكرًا آخر مرة كانت أمي في زيارتي قبل شهر، حينما دق جرس هاتف بيتي:

– ألو؟

– أنا وماما في الطريق.. انتظرنا تحت.

حَملْتُ مقعدًا، نزلتُ به من طابقي الرابع، تركته بفناء البيت، خرجتُ لها منتظرًا، تلقفتها بابتسامة شوق مرحبًا، باديًا على وجهها الأبيض الدائري الشوق واللهفة، فتحتُ باب السيارة، ونقلتُ قدميها الممتلئتين خارجًا، تحسستْ موضعهما، تقلصتْ ملامحها وهي تحاول التعلق بأهداب الباب للنهوض بجسدها الممتلئ وأمراضها العدة، ملتُ عليها لجذبها، اتكأتْ واضعةً يدها في يدي متمايلة في خطواتها حتى وصلنا إلى الفناء، نظرتْ إلى المقعد في شوق، جلستْ عليه ملتقطة أنفاسها الهاربة، تجاوزتنا

أختـي الكبـرى صاعـدة بحقيبـة أمـي مهرولـة علـى الـدرج، تابعـتُ ارتقـاء الحقيبـة وهـي جالسـة بعينيهـا تنظـر بقنـوط لدرجـات السُـلم.

نهضـتُ مـن مقعدهـا متلقفـة أول خيـط الـدرج وهـي تنظـر إليـه بتحـدٍّ قائلـة:

– يلا بينا.

حملـتُ المقعـد صاعـدًا خلفهـا درجـة تلـو الأخـرى، حتـى انحنـى بنـا السُـلم يمينًـا لأعلـى، تابعـتُ هـي في حمـاس حتـى انتهـت أمـام إحـدى درجاتـه المتسـعة، التفتـتْ نحـوي وجبينهـا يتصبـب عرقًـا غيـر قـادرة علـى النطـق، لحقتهـا بالمقعـد أسـفل منهـا، اسـتجمعتْ الأحـرف في حلقهـا مداعبـة:

– السلمة عالية، ومش قادرة أرفع رجلي أخطيها.

أجبتها باسمًا:

– والله عنـدك حـق يـا مامـا.. كان لازم اختـار السـلم قبـل الشـقة.

نهضـتْ غيـر مباليـة بمـا قلـت، متأملـة درجـة السـلم التاليـة المرصعـة بقطـع مـن الرخـام المتناثـرة والمتنافـرة ألوانـه، مصمصـت شـفتيها ممتعضـة وهـي صعـود:

- حتى الرخام من كل فيلم أغنية.

في استراحتنا التالية في منتصف الطريق، وضعتُ المقعد أسفل منها، قبضتْ على يدي وقالتْ متأففة:

- مش كنت تسكن في الأرضي أحسن؟

رددتُ عليها ساخرًا:

- كويس إني ساكن.

●●●

obeikandl.com

(٣)

أفقتُ من هذياني على نقرات أخي على قاعدة المقعد الخشبي للتأكد من متانته، تحركنا ببطء لهبوط الدرج، شعرتِ بتأرجح خطواتنا فقالت بصوت متحشرج:

- أنا خايفة.

نظرتُ في قاع عينيها بيقين:

- ما تخافيش يا ماما.

تحسستُ وأخي أولى الدرجات الملساء، تابعنا بخطوات متتالية على هدي أختنا، وصلنا نهاية الصف الأول، أنزلنا المقعد بهدوء على إحدى درجاته المتسعة، متجنبين النظر لبعضنا البعض.

●●●

obeikandl.com

(٤)

تذكرتُها مجدداً في زيارتها الأخيرة لي وهي قادرة على المشي، حينما نهضتْ مستمرة في الصعود، واستراحتْ، وصعدتْ، وقبل بلوغ باب شقتي، قالتْ في استراحتها الأخيرة وهي تنظر لموضع قدميها:

- غيبوبة السكر بتخوِّفني أقعد لوحدي.

تابعتْ وهي تلاحق قطع الرخام المتناثرة:

- وعيالي كلهم ساكنين في العالي.

ربتُّ على كتفها:

- أنت فراشة بترفرف حوالينا.

تقدمتْ متكئة على حوائط الشقة حتى جلستْ أمام الهواء البارد، ارتمى طفلي بأحضان جدتهما مرحبين مهللين، وقبل أن تستقر أنفاسها بصدرها، أخرجتْ علبة الدواء، وضعتْ حبة أسفل لسانها وبلعتْ ريقها، مدتْ يدها بقطعة شيكولاتة لحفيدتها:

- اتفضلي يا عيون (تيتة) بجوز الهند.

قبلتْ جدتها غائرة في حضنها بسنواتها الخمس وثغرها الباسم، وقبل أن يتململ المنتظر لهديته الأكبر من تلك التي نالتها أخته الصغرى، مدتْ يدها في حقيبتها مجددًا ووضعتها في يده:

- أنت بقى اشتري آيس كريم.

وأمسكتْ بطرفي إصبعها وجنته الملساء مداعبة :

- لو جبت لك آيس كريم معايا كان ساح على خدك من طلوع السلم.

قبض الحفيدين على يدي جدتهما، قائلين في صوت واحد:

- اقعدي معنا على طول يا (تيتة)، ونامي على سرير كل واحد فينا يوم.

رمقتْ زوجتي، وهي جالسة تشاهد فيلمًا قديمًا:

- يومين بس وأروح لعمكم.

نهضتْ أختي مودِّعة وعينها صوب الباب، لحقتُها أنا وزوجتي، تابعتْ أمي مرورنا أمامها، نظرتْ نحو الفراغ متممة:

- لازم ألف على ولاد ولادي.. مش بيستغنوا عن حب جدتهم.

●●●

(٥)

جذبني أخي من يدي قائلاً:

- سرحت في إيه؟

أمسكتُ بالمقعد لأحمله معه:

- أبدًا.

عاودنا الكرة مرة أخرى، مالتْ برأسها نحو السور الحديدي للدرج مهمهمة:

- مش قولت لك يا ابني متلفش صوباعك في حديد الدرابزين علشان التراب؟

وصلنا إلي الشارع نحملها حتى باب السيارة، جلس أخي على مقعد السائق، فتح المقعد المجاور وجذبها إليه، رفعتُ قدمها اليسرى داخل السيارة، استلقتْ على مقعدها وهي تنظر أمامها نحو الشارع الممتد المعانق للسماء في الأفق، ابتسمتْ ابتسامة طفولية:

- يا حلاوة.. شايليني لحد باب العربية.

رفعتُ قدمها اليمنى ووضعتها بجوار يسراها داخل السيارة.. وأغلقت الباب.

٢٠١٣/١١/١١

●●●

obeikandl.com

الحِمِش

حضر (عم وهدان) في موعده الذي لم يخلفه منذ سنوات، يدفع بأقدامه أطراف جلبابه البني ذي الأكمام الفضفاضة، جلس على مقعده في أقصى اليمين، واضعًا (قفَّته) على المنضدة، طوَّق رقبته جيدًا بكوفيته الصوف متدثرًا من برد الشتاء، رفع يده متحسسًا ثنايا عمامته البيضاء جاذبًا من بين ثناياها سيجارة (فرط)، أشعلها متخللاً بأصابعه لحيته التي لا تقل بياضًا عن عمامته، شذبها مبتسمًا مهللاً بصبي لوَّح له برفع قدميه، وهو ينظف بهمة أسفل الكراسي المصفوفة على رصيف المقهى.

نفث دخان سيجارته مستذكرًا آخر عهده بأمه:

– على وين يا وليدي لساك صغار؟

أجابها وهو يلملم خلجاته في (قفَّته) قبيل مغادرته (النجع) في سبعينيات القرن الماضي.. في موسم الهجرة إلى الشمال:

– واد عمي بيجول الشغل في المينا ياما.

رفع قدميه منكمشًا بحجمه الضئيل عندما مد الصبي مقشته أسفل منه، ممتعضًا من جسمانه الضئيل الذي وقف حجر عثرة

أمام عمله في الميناء مع بقية (العتّالين[١٢])، إلى أن استقر به المقام على مقعده حيث هو بمقهى شعبي يجاور محطة الرمل، عاود الانكماش متجنبًا نثر الصبي للنشارة الناعمة على الرصيف.

حمل (قفته) متأكدًا من غطاء فوهتها بقطعة من (الخيش[١٣])، دلف المقهى نحو الصبي المنشغل بإشعال النار أسفل (الرمّالة)، دس يده داخل (القفة) وأخرجها ممتلئة بقدر كبير من الفول السوداني تركه أمام الصبي على (النصبة)، داعبت رائحته أنف الصبي، أمسك بإحدى حباته وفركها قائلاً:

- ليلتك عسل يا (عم وهدان).

نظر نحو زبائنه مناديًا على بضاعته:

- الحِمِش.

كانت هذه كلمته التي يصيح بها بين حين وآخر، باحثًا عن الجوعى والراغبين في تجربة حظهم مع لعبة (جوز ولا فرد).

مر بين طاولات الجالسين، تجاوز واحدة أصحابها على المعاش، يليهم عشرينيون يجلسون نفس جلسة سابقيهم، يعتدلون فقط في هيئتهم كلما مرت عليهم فتاة، أشار إليه أحدهم ممسكًا

١٢- العتال: حمَّال بأجر.

١٣- الخِيش: نسيج غليظ من الكتان.

obeikandl.com

بسيجارة منتفخة بلفافة (بانجو) مبديًا رغبته في ممارسة لعبة (جوز ولا فرد)، أخرج (عم وهدان) يده من كُم (القفة) بالسوداني المختبئ داخل قشرته المحمصة المملحة، وقبل أن يفرغها على المنضدة قال صاحب السيجارة المحشوة:

- جوز.

تولَّى أحد أصدقائه عد حبات السوداني اثنان.. اثنان.. حتى أنهى عده برقم فردي، وقال الذي عد مبديًا رغبته في اللعب:

- فرد.

قال الخاسر الأول:

- أعد لك.

استمر في عده ثلاث حبات يليهم ثلاث حبات حتى أنهى عده بزوجين من السوداني، رفع رأسه بابتسامة خبيثة نحو صديقه معلنًا خسارته، قال ثالثهم:

- أجرب حظي، جوز.

أعاد الخاسران السوداني الذي انتهى برقم فردي مقهقهين على سوء حظهم، وضع كل منهما جنيهًا معدنيًّا في يد (عم وهدان) قائلين:

- إيه النحس الدكر ده؟

قضى نصف يومه متجولاً على رصيف المقهى بين الجالسين بين أصحاب الحظ العثر في اللعب والحياة، توغَّل (بقفته) وسط المقهى بعدما ازدادت ازدحامًا بين ممارسي لعبتي (الدومينو) و(الطاولة) الأكثر احترافًا، وكلما مر بين أحد المقاعد بجواره (شيشة) ملأ صدره بدخانها فائزًا (بتعميرة) مجانية من الدخان الأزرق، لا صوت يعلو على ضجيج قطع (الدومينو) و(الطاولة)، يصاحبه تدحرج (النرد) متألمًا من قرصه.

وقف (عم وهدان) خلف (أحمد سعيد) ذي الخامسة والثلاثين عامًا، صاحب محل الملابس النسائية في شارع (صفية زغلول)، زبونه منذ أيام عزوبيته قبل زواجه من فتاة ميسورة الحال ترددتْ كثيرًا على محله قبل زواجهما، لمح قطع الدومينو بين يدي (سعيد) يحمل معظمها رقم (خمسة)، وكلما هز (عم وهدان) رأسه مقترحًا اللعب بورقة جيدة، يختارها (سعيد)، كأنه يستمع لما يمليه عليه قرينه، حتى ورَّط اللاعب المقابل في سحب بقية قطع الدومينو.

جذب (سعيد) من خلفه طرف جلباب (عم وهدان)، وهو يرفع يده عاليًا ويهبط بقطعة الدومينو على المنضدة محدثًا دويًّا هائلاً قائلاً:

- (بانج دو[14]) قفلة وعد يا معلم.

بدأ الخاسر في حصر خسائره قائلاً:

- ماشي، يا ابن المحظوظة.

نطق (سعيد) بكلمة واحدة:

- الحِمِش.

مد (سعيد) يده في (القفة) وأخرجها ممتلئة بالفول السوداني، وضعه أمامه وأمام نديمه، وأخرج من سترته عشرة جنيهات ودسها في سيالة (عم وهدان) كالمعتاد.

ازداد الدخان الأزرق نقاءً في بطن المقهى مع ساعات الفجر الأولى، حيث خلوة المعلمين الكبار، لا يمارسون ألعاب الهواة، لديهم ألعابهم التي يمارسونها في الحياة، لا يعكر صفو مجلسهم أحد، هم على مقربة من باب جانبي يفتح على شارع خلفي، يُستعمل في حالات الطوارئ التي لم تطرأ منذ أمد.

يتوسط المعلم (صبحي) رفاقه ببنيانه الممتلئ وكرشه المتدلي أمامه، تكاد أصابعه تطاول (طقطوقة) وضع عليها (دُرج أحجار) الشيشة، يُلقمها بقطع الحشيش، مُقسِّمًا الأرزاق على المتابعين،

١٤- بانج دو: ٥-٢ .

يجلس صبي المقهى قرفصاء أمامه يرص الفحم على الشيشة يغالبه النعاس، وكلما فرت جمرة من فوق حجر الشيشة، يحاول الصبي إمساكها (بالماشة)، يدفع (صبحي) يده بعيدًا، ويحملها بأصبعيه ويعيدها فوق (الحجر).

رمق المعلم (قفة عم وهدان) بنصف عين مدركًا أنها أشرفت على الخواء، نادى عليه بصوت أجش:

- حِمِش.

هرول نحوه، وقال (صبحي):

- جوز.

وبدأ عد السوداني أزواجًا في تأنٍّ مدركًا ما سيصل إليه في نهاية المطاف، ابتسم منتشيًا ومبسم شيشته لا يفارق ثغره ذا الشارب الأبيض الكث المائل للاصفرار في منتصفه من زفير شيشته، أشار (صبحي) باستمرار اللعب بيد قابضة على عملات فضية، نطق بأحرف مدموغة:

- فرد.

زادت ابتسامته الماكرة اتساعًا بفوزه الثاني على التوالي، كرر محاولاته مرات.. ومرات، حتى خوت القفة وامتلأت المنضدة، فتح

كفه وهو يهزها مصدرة صوتًا يرجف له قلب (عم وهدان)، ثم ألقى في كفه الممدودة جنيهًا واحدًا، مشيرًا بأطراف أصابعه إليه بالانصراف، وقال أحد سمار (صبحي) ممالئًا وهو يهم بتقشير السوداني:

- سعيد في اللعب، سعيد في الحب.. يا جوز الاتنين كل واحدة فيهم أصبى من التانية.

غادر (عم وهدان) هو و(قفته) الخاوية، يجر أذيال جلبابه وخيبته، مختلطًا على مسامعه ضحكات (المعلم) الممزوجة بسحق قشور الحمش.

٢٠١٢/٥/١

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

كونشيرتو

ارتدت فستانها الأبيض السوارية الضيق والملامس طوله لحذائها؛ احتفالاً بعيد زفافها الأول، نظرت في المرآة متمايلة واضعةً يدها على خصرها حيث وضع يده ليلة عرسهما وهو يراقصها، أغمضت عينيها متذكرة أنامله حيث كانت.. سمحت فتحة الفستان الممتدة بطول ساقها اليسرى بخطوات رشيقة نحو مقعدها الوثير أمام مرآتها.

وزَّعت الكريم على بشرتها بابتسامة ماكرة، برقت عندما تذكرت أنفاسه اللافحة لوجنتيها وهو يراقصها، حينما نأت بخدها عن أنفاسه متجنبة أعين الراصدين في الصفوف الأولى لحفل زفافهما، جذبت نفسًا عميقًا عائدةً لمكياجها، واضعةً ظلالاً حول عينيها، متجنبة النظر للسهام المنطلقة من أعينه وأنامله تداعب خصرها، استشعرت قبلاته المتطايرة تلامس شفتها المرتعشة وهي تضع أحمر الشفاه فتحت علبة مجوهراتها، علَّقت قرط ليلة زفافها في أذنها حيث لمسها ثغره وهو يدنو منها همسًا:

– بحبك.

obeikandl.com

مالت برأسها على كتفه غير متمالكة لأعصابها متشبثة به، بادلته الهمس:

– أربع سنين (كونسيرفتوار)[١٥] وأنا هموت عليك.

دنا برأسه حانيًا على شعرها:

– سندويتشات الروزبيف.. تشهد على حبك.

طوقت رقبته بيديها، وغزت أناملها شعره:

– صعبت علي.. مقطوع من شجرة لا أب ولا أم.

كتم ضحكته:

– يا مجرمة.

انتبهت على ثلاث نقرات على باب حجرتها، لمحتها بطرف عينها تتقدم نحوها بخطى متأدبة، وضعت أمامها بطاقات الورود بجوار زجاجة عطرها:

– الورد يا ست هانم.

استدارت مغادرة مغلقة الباب خلفها، قرأت أولى البطاقات «خالص شكري وتقديري .. بعدد الدقات الصادرة من قلب أمي .. مودتي»، نبتت ابتسامة صغيرة على شفتيها وهي تقرأ البطاقة

١٥- المعهد العالي للكونسيرفتوار.

الثانية «إليك .. خالص عرفاني بجميلك الآسر»، أسدلت جفنيها ثم فتحتهما وهي تقرأ الثالثة «لولاك ما رأيت غدًا مشرقًا.. محبتي لصاحبة الروح الجميلة»، تابعت قراءتها وهي تحركها بطرف إصبعها الأصغر واحدًا تلو الآخر، لمحت في يسراها «دبلة زواجها» متذكرة لحظة نقله الدبلة من يمناها إلى يسراها بعد مراقصته وسط تصفيق المدعوين.

اتسعت شفتاها بابتسامة عريضة حينما تذكرته مجددًا، وهو يشير إلى أحد موظفي الفندق، الذي تقدم نحوهما حاملاً آلتي (الكمان والفلوت)، وضعت هي الكمان على كتفها، ومط شفتيه ملامسًا الفلوت، قدما التحية كعازفين، صفق الحاضرون وارتسمت على شفافهم ابتسامات عريضة، وعزفا (كونشيرتو موزار ـ D Major[١٦]) كما لم يعزفاه من قبل في (دار الأوبرا)، تراوغه هربًا على أوتار الكمان، ويلاحقها بأنفاسه المنبعثة من الفلوت.

التهبت القاعة بالمصفقين منتشين بعزفهما الشذي.. شق طريقهما نحو جناحيهما، حملها مطوقة رقبته غائرة في حضنه، لم تستطع أن تنطق عندما شاهدت زهور التيوليب تغمر سريرهما، وضع طرف إبهامه على شفتيها، قائلاً:

١٦- D Major: هو سلم دو الكبير في المقامات الموسيقية ، ويطلق عليه سلم دو ماجير فى الغربى، ومقام عجم فى الشرقى.

obeikandi.com

- الليلة التيوليب.. وبكرة الساحل[١٧].

استفاقت على صوت سيارة تقف أمام باب الفيلا، رشت زخة من عطرها الباريسي، أخذت بطاقات الورود، وهبطت من عليائها لاستقبالهن منصتة لهمهماتهن:

- الهانم هنا؟

أجابتهم منحنية:

- اتفضلوا.

دلفت أمها وصديقاتها إلى البهو بملابسهن السوداء، مستغربةً مظهر ابنتها وهي تهبط درجات السلم بساقها المرمرية تظهر وتخبو كلما خطت خطوة، ارتبكت نظرات أمها هربًا من أعين صديقاتها، تجاوزتهن ابنتها بقامتها الباسقة نحو باقات الزهور بالزاوية البعيدة، القابع بينها آلتي (الكمان.. والفلوت)، التفتتْ إلى نظرات أمها الزائغة، لحقتهن بالإجابة على فضولهن:

- إنتم فاكرين إنه مات في طريقنا للساحل؟

١٧- الساحل : اختصار لمنطقة الساحل الشمالي، منطقة ساحلية مطلة على البحر الأبيض المتوسط تقع شمال القاهرة وغرب الإسكندرية.

تباينـت ردود أفعالهـن، قـرأت عليهـن بطاقـات الـورود بصـوت مسـموع ثـم أسـكنتها في الباقـات، والتفتـتْ إليهـن، مشـيرة بكفيهـا للزهـور:

– لما اتبرعت بأعضائه.. روحه عاشت في أجسامهم.

تقدمت خطـوة وأمسـكت (بالكمـان) وعينهـا ترنـو إلـى (الفلـوت) تتنسـم أنفاسـه.. وعزفـت لـه (كونشـيرتو D Major).

٢٠١٤/٢/١٤

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

مشهد

- نهضت واقفةً وسط الكوفي شوب.
- أمسكت بحقيبة يدها، وتركته جالسًا.
- وفنجان قهوة معلق على فمه ينظر نحوها بذهول.

مشت مغادرة:

(كريشندو[18]) رضوى: لأ .. لأ .. لأ

. قطع Cut .

بهذا الأداء الصوتي التصاعدي لبطلة سيناريو فيلمه الجديد (رضوى)، أنهى كتابة مشهدها مع حبيبها المتخاذل، عاد برأسه للخلف يحملق في السقف متسائلاً:

- ماذا بعد؟

أوقد سيجارة من سيجارته الموشكة على الانتهاء، نظر للمنتهية وهو يطفئها بامتنان بعدما شاركته لحظة ميلاد رد فعل (رضوى)، سحب نفسًا عميقًا من الجديدة، وأمسكها بأطراف أصابعه ناظرًا إليها متسائلاً:

١٨- كريشندو Crescendo : مصطلح موسيقي إيطالي يصف الموسيقى المتناغمة المتنامية بموجات صوتية تصاعدية.

obeikandl.com

- هتضيفي إيه يا حلوة؟

نظر للسقف مجدداً ينفث الدخان، يتبعه باحثًا فيه وفي سراديب عقله الناضب عن حل درامي يعقب فعلة رضوى.. سقطت شرارة على (تي شيرته) الفيسفوري وأخرى على (شورته) الأسود، حكم على سيجارته بالإعدام كاتمًا أنفاسها بحنق.

نهض من مكانه إلى أقصى حجرته، واضعًا أسطوانة قديمة لمطربته المفضلة (إديث بياف[19]) في جرامافون اشتراه من مزاد، تجوَّل مستمتعًا بأدائها وبالطقطقات الصادرة عن الأسطوانة المصاحبة لصوتها المنبعث من النصف الأول من القرن العشرين، استشرت في جسده رعشة باردة، مستذكرًا طقطقة الأخشاب المحترقة في نيران مدفأته، كتلك الصادرة عن أسطوانة بياف مخلفة من حريقها صوتًا يذوب في وجدانه.

غادر حجرته مستلقيًا على مقعد وثير بأحد أركان بهو بيته الفسيح الخالي من الأحياء دونه وبعض نباتات الظل، لمح أسفل مقعد بالزاوية المقابلة شراب (فيليه) أسود لا يذكر مِن صاحبته سوى ضحكاتها الرقيعة.

١٩- إديث بياف : مغنية فرنسية (١٩١٥ - ١٩٦٣) اشتهرت باسم ‹La Môme› أي الطفلة الصغيرة. وهي من أصول إيطالية جزائرية. يعكس غناؤها حالة من الألم والبؤس اللذين رافقا حياتها.

جـذب بأطـراف قدمـه (الريمـوت كنتـرول) حيـث تركـه عشـية أمس علـى الأرض، أخذ جولـة علـى القنوات الفضائيـة، توقف أمام فيلمـه الأخيـر المعـروض علـى إحـدى الفضائيـات، نظـر يمينًـا إلـى حائط بطولاتـه مشـاهدًا جوائـزه في الإخـراج التـي نالهـا عـن فيلمـه، متأمـلاً تقطيعاتـه بـين المشـاهد.

سـخر مـن جنونـه مسـتذكرًا تأثيـر مهنتـه علـى واقعـه، متخيـلاً نفسـه يحيـا داخـل فيلـم، وهـو (يُمَنْتِـج) شـريط حياتـه بتقطيعـات كتلـك التـي يراهـا علـى الشاشـة.. اسـتقام في وقفتـه تـاركًا فيلمـه الناجح بجوار (تـي شـريته) نازعًـا عنـه ملابسـه وأفكاره المتعثرة قبـل الولـوج إلـى الحمـام، دافعًـا البـاب خلفـه، مـرددًا بداخلـه:

ـ مـاذا بعدمـا وهبـتِ رضـوى قبلـة الحيـاة لكلمـة "لأ" بأدائهـا التعبيـري، لا بـد مـن حـل مرئـي دون الاسـتعانة بـأي جملـة حواريـة تعيـق اسـتقرار المشـهد في وجـدان المشـاهد.

مـزج الميـاه الدافئـة بالبـاردة، وهـو يهـز رأسـه مؤكـدًا رجاحـة فكرتـه، وقـف أسـفل زخَّـات الميـاه المنسـابة علـى جسـده المشـدود الفتـي، وضـع قليـلاً مـن (الشـامبو) علـى رأسـه، مزجـه بشـعره برفـق مغمضًـا عينيـه، والميـاه تنسـاب علـى وجهـه.

رأى نفسه حينها على شاشة حياته الفضية، يأخذ حمامه وهو (يمتزج[٢٠] Desolve) مع مشهد بطلته رضوى، وهي تقف في المصعد، يشطرها الضوء نصفين، تهبط إلى موقف السيارات، ثم تخرج بسيارتها من أسفل نفق مسرعة، تصحبها موسيقى تصويرية لآلات نحاسية تتصارع فيما بينها، ينحسر عن وجهها ظلام النفق بعد صعودها، ممسكة بفرامل اليد بقوة، وتستدير في الاتجاه المعاكس نحو أحد الأحياء الشعبية.

ربط حزام (البورنس) مجففًا رأسه، مبتسمًا لنفسه في مرآة الحمام الضبابية عائدًا إلى واقعه، انكفأ على سيناريو فيلمه مسترسلاً حتى كلمة النهاية، مدد جسده المنهك على سريره يحملق في السقف، متسائلاً:

- لماذا لا تأتيني الحلول كلما تعثرت في مشهد إلا في الحمام؟ هل لأنني اختلي فيه بنفسي.. أم لأنه مكان تسكنه الشياطين؟

(**إظلام تدريجي** [٢١] Feed in black)

٢٠١٣/١٠/١٧

●●●

٢٠- المزج Desolve : خلط الصورة بصورة أخرى واختفائها تدريجيًا حتى تظهر الصورة التي تليها.

٢١- إظلام تدريجي (التلاشي) Feed in black : اختفاء الصورة تدريجيًا إلى اللون الأسود.

obeikandl.com

نــور

ـ أوك يـا جماعـة ممتازيـن، بكـرة إن شـاء اللّه نفـس الحمـاس أشـوفه علـى خشـبة المسـرح سـواء أوركسـترا أو راقصـين.. العـرض مهـم وفي شـخصيات مهمـة هتحضـر الافتتـاح.

حدثت جلبـة بين الفرحـة بانتهـاء البروفـة (الجنـرال) والخـوف مـن الافتتـاح، أخـذ الجميـع طريقـه إلـى خـارج المسـرح، الراقصـون لحجـرات ملابسـهم، العازفـون كل منهـم وضـع آلتـه في جرابهـا بمنتهـى الرفـق كأنـه يغطـي أحـد أبنائـه في ليلـة شـتوية كهـذه.

ذهبـتِ إلـى غرفـة البطلـة في صمـت، غيـر مقتنعـة بأدائهـا، يغلبهـا شـعور بالذنـب لعـدم صفـاء ذهنهـا اسـتعداداً لبطولتهـا الأولـى.. كارمـن، دقـت صديقتهـا البـاب، أثنـاء خـروج أفـراد الفرقـة عائديـن لبيوتهـم:

- أنت لسه بالملابس يا ضحى؟
- سرحتِ شوية.
- طب يلا.. مش هتوصَّليني في طريقك؟
- معلـش روحـي مـع أي حـد النهـارده، عايـزه أقعـد لوحـدي شـوية.

وصوتها يتباعد مسرعة بالخروج:

- أوك باي، بكرة الافتتاح لازم تنامي كويس.

أجابتها بصوت غير مسموع:

- حاضر.

انتشر الهدوء ولم يبقَ سوى بعض العمال، خرجت بملابس كارمن متوجهة إلى المسرح، وقفت في وسطه، محاولة إعادة بعض الحركات التي لم ترضِها.. أغمضت حواسها جميعًا، مستمعةً لصوت الموسيقى تعزف بداخلها.. وفي أصعب لحظات جلدها للذات، قدمت أرفع أداء تدريبي لها، وما كان هذا ليقنعها، لولا تمكُّن الإجهاد منها، جلست وسط المسرح متقوقعةً داخل مشاعرها.

همهمات لصدى حوار تحفظه عن ظهر قلب:

- سافري يا بنتي مع خطيبك، صدقيني مش هيحصل لي حاجة.

- صدقيني يا ماما كندا هتعجبك، شوفتها قبل كده مع الفرقة لما عرضنا هناك.

- صعب عليَّ يا (ضحى) أسيب مصر في السن ده، أنت لسه صغيرة تقدري تبدئي حياتك في أي مكان.

- مقدرش أسيبك يا ماما، ولازم أكون جنبك حتى علشان الأدوية بتاعتك ومواعيدها.

- هعرف أدبر أموري.

- ماما بليز وافقي.

بصوت مقتضب:

-(ضحى).. أنت هتسافري معاه علشان هيبقى جوزك، ومن حقه تروحي معاه في أي مكان في الدنيا، أنا كمان من حقي أفضل جنب أبوكِ المدفون هنا لحد ما يجي يوم واندفن جنبه.

بروح الدعابة:

-ما تقوليش كده يا ست الكل، إنت هتعيشي لحد ما تجوزي ولاد ولادي.

سمعت بعد ذلك أصداء صوت ذكوري يقول لها:

- ممكن نحل مشكلة طنط وحد يقيم معها في البيت.

- إزاي تقول كده؟ أنت مش عارف الحوادث اللي بتحصل الأيام دي؟

obeikandl.com

- هي مش عايزة تسافر معانا، أوك.. في بديل تاني قدمنا؟

دون أن تضع عينيها في عينيه:

- مش ممكن تلغي فكرة كندا، وتاخد الدكتوراه من هنا؟

- طبعًا لأ.. أنت مش عارفة إمكانيات البحث العلمي هنا شكلها إيه، صعب جدًّا تطلبي مني ما احققش حلمي علشان طنط عايزة تموت وتندفن هنا.

- (ماهر) بليز ما تتكلمش على ماما بالطريقة دي، مش من حق حد يسخر من أحلام حد مهما كانت تافهة أو بسيطة، هي شايفة إن الدنيا لا تعني لها غير شوية التراب اللي هيقربوا بينها وبين حد عاشت عمرها بتحبه.

- واضح تأثرك بكتب الفلسفة اللي في مكتبتكم.

- دي أجمل حاجة ورثتها عن بابا، ما اقدرش ألومك لأن حياتك كلها معادلات ونتائج، ولو روحنا كندا مش هنرجع.

- في إيه هنا نبكي عليه؟ الدكتوراه ومستقبلي العلمي هناك حتى مستقبلك في الباليه أفضل هناك.

- شوف يا (ماهر).. إحنا حبنا جميل لكنه مش هيعيش لو ظلمنا حد في طريقنا، دايمًا هيكون عندي إحساس

بالذنب ناحية ماما بسفري معاك، ودايمًا هيكون عندك إحساس بالذنب لو لمحت نظرة حزن في عيني على ماما.. هيفضل سر عذابنا هو ضميرنا الحي.

أومأ مؤكدًا:

- أيوه يا (ضحى).

- سافر.. أنا هفضل هنا جنب ماما.

- يعني إيه؟

رفعت رأسها على صوت اثنين من العمال يتهامسان:

ـ قربنا على الفجر، هي مش هتروح ولا إيه؟

نزلت من على خشبة المسرح متجهة إلى حجرتها، خرجت بعد دقائق مرتدية تنورة سوداء، وسترة جلدية سوداء تخفي تحتها كنزة حمراء، تتقاذف ذكرياتها بخطواتها المتثاقلة، تلعن الصراع الدائر داخلها.. أأخطأت حينما فضلت البقاء مع أمها وتركته يسافر وحده؟ أم فعلت الصواب؟! ظل السؤال يبحث داخلها عن إجابة دون رد.

obeikandl.com

ركبت سيارتها مغادرة دار الأوبرا لا تتجاوز سرعتها الأربعين كيلومترًا، توقفت في منتصف كوبري (قصر النيل[٢٢])، نزلت منها متأملةً جريان نهر النيل أسفلها، مشاهدة الأضواء المتكسرة على صفحة النيل مثل آمالها.

لفت نظرها جريان مياه النيل المقبلة من بعيد نحوها، تمر أسفل قدميها إلى الجانب الآخر مستمرة في الجريان، تذكرت قول الفيلسوف (هرقليطس[٢٣]) "إنك لا تستطيع أن تنزل النهر مرتين لأن مياهًا جديدة ستغمرك باستمرار"، لمعت عيناها على أمل جديد تحيا من أجله.

نور.. ينبعث من رحم معاناتها مهتدية إلى ضالتها، ستولد نجوميتها الليلة، سيعطيها المسرح كما تعطيه، وسيمنحها نوره مثلما تمنحه جهدها، ستحمل لياليه اسمها مخلدةً ذكراها.. هي بطلته وهو حياتها.. نظرت يسارًا فرأت شروقًا جديدًا يتجلى من بعيد.. ركبت سيارتها منطلقة نحو بيتها.

٢٢- كوبري قصر النيل : أنشأه الخديوي إسماعيل عام ١٨٦٩، ويقع بالقرب من ميدان التحرير، يعد أول كوبري للعبور بين ضفتي النيل في مصر، يتميز بأربعة تماثيل مصنوعة من البروز لأسود قابعة عند مدخلي الكوبري.

٢٣- هرقليطس : فيلسوف يوناني اشتهر بالغموض، وباللغته المجازية الرمزية.

دقات على باب حجرة البطلة:

- ستارة، خمس دقايق على الستارة.

خرجت من حجرتها تدب بخطواتها الواثقة على الأرض، سمعت الدقات الثلاث للمسرح، ثم رفعت الستارة.

٢٠٠٨/٦/٣٠

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

في بر مصر

لم أكن مهتمًّا على متن أي شركة طيران استخدمها خلال سنواتي الأخيرة في الكويت، تعاملت مع شركات عدة، سعيت خلف جدية المواعيد، الخدمة المتميزة، والسعر الأنسب، اليوم وبعد ٢٥ يناير، عقدت العزم على العودة إلى المحروسة على متن شركتي الوطنية مصر للطيران، متجاوزًا ذكرياتي الأليمة معها.

وقفت في طابور طويل عريض لإنهاء إجراءات سفري، أشار الموظف المسئول عن (كاونتر التشيك أوت) بطرف إصبعه لأحد الواقفين بعيدًا.. سلك بهذه الإشارة رجل بدين وأسرته طريقًا مختصرًا للوقوف أمام (الكاونتر) مباشرة، تناجى اثنان من خلفي يهمس الأول في أذن الثاني:

-جماعة من الثورة المضادة!

أنهيت إجراءات سفري، جلست في مقعدي بالطائرة مترقبًا من سيرافقني في رحلتي بالمقعد المجاور.. أهلَّ عليَّ بسنواته الخمسين وشعره الأشيب، ممسكًا بكتاب أخرجه من حقيبته فور جلوسه منغمسًا بين سطوره.. جذبني فضولي لمعرفة ما يقرؤه، لمحت عنوان كتابه (موسوعة تاريخ الإعلام السياسي في مصر).

لمحت بعض الوجوه في الطائرة مشرقة، يرتدي الراكبون أجمل ما لديهم في عيد المغتربين.. الأجازة بالنسبة للمغترب عن وطنه عيد ممتد حتى العودة.. تابعت على شاشة الطائرة خط سير الرحلة بين حين وآخر ننتقل من سماء مدينة إلى أخرى، مرت بجواري المضيفة تدفع عربة أمامها ممتلئة بالجرائد اليومية، تلقفتها من بعيد مهلاً:

-ممكن الأهرام؟

استشعرت طزاجة عناوين الأهرام وهي تخلو من تمجيد الرئيس المخلوع بعد ٢٥ يناير.. حملت عناوينها: جمعة "الثورة أولاً" توحد القوى السياسية، الإخوان والسلفيون يتراجعون عن المقاطعة.. جميع ائتلافات الشباب تشارك، مطالب القصاص للشهداء، تطهير الحكومة ينتزع الأولية من "الدستور أولاً".

تابعتُ الشاشة مجدداً لمعرفة أين نحن.. ونحن محلقين فوق (شرم الشيخ) نظرت من النافذة أسفل مني فوجدتها مدينة لا تكاد أن ترى من فرط ضآلتها هي ومن قطن في مستشفى شرم الشيخ الدولي.. عند ملامسة عجلات الطائرة أرض مطار القاهرة، صفقت طفلة في الخامسة وهتفت "هيه"، فتح باب الطائرة، تنسمت هواء الحرية، وددت أن لا أخرج زفيري محتفظاً بالمحروسة بين ضلوعي.

انطلقنا مهرولين لإنهاء إجراءات الوصول، قبل ٢٥ يناير.. كنت أرى عند مغادرة الطائرة عشرات يحملون لافتات كُتب عليها أسماء بعض أصحاب الحظوة من الركاب لإنهاء إجراءات وصولهم سريعًا، بعد ٢٥ يناير.. رأيت اثنان فقط يحمل كل منهما لافتة عليها اسم أحد الواصلين مرددًا اسمه بصوت مرتفع:

-محمد بيه.

يتبعه صدى الآخر:

-الأستاذة أُلفت.

التقت عيني بعين من يبحث عن (محمد بيه) حتى دنوت منه، وقلت له بصوت مسموع:

-هو لسه في كده؟!

لم يرد ولم يجرؤ أن يعقب منكسرًا، حملت حقائبي مغادرًا المطار، وقبل الولوج إلى الطريق الدائري ارتطمت رأسي بسقف السيارة تأثرًا بهبوط عجلتها الخلفية في (حفرة) تتوسط الطريق.. كلما حدث لي ذلك قبل ٢٥ يناير أردد القول المأثور "هي دي مصر يا عبلة"، أما اليوم ابتسمت متمتمًا: "مش مهم .. بكرة نصلحه".

obeikandi.com

لم يخلُ الطريق من القاهرة للمنصورة من اعتداءات سافرة على الأراضي الزراعية من أناس لا يقلون فسادًا عن نزلاء (بورتو طرة)، تجسدت ثورة ٢٥ يناير بنجاحاتها وعثراتها.. عندما مررت بجوار مبنى محافظة الدقهلية، حينما رأيت على يميني مبنى (مكتبة مصر) التي كانت تحمل سابقًا اسم (مكتبة مبارك).. تأملت الاسم المحذوف بحكم قضائي، رأيت أثره ما زال باقيًا على الواجهة.

لمحت قبيل بلوغ بيتي صورة لشاب معلقة في ميدان حمل اسمه، شاب (زي الورد) فقد حياته في جمعة الغضب ـ مات علشان مبارك يعيش ـ قرأت الفاتحة.. وانعطفتُ يمينًا منشغلاً بظل مبارك على اسم مصر.

٢٠١١/٩/١٣

●●●

obeikandl.com

عملة واحدة

عندما أصبح في منتصف الطريق، وخزها كعادته:

– العربيات هتدوسنا!

– مابقاش مهم.

كانا يجلسان فوق رَبوَتَهما الخضراء، يفترشان عشبها، يرتكن كل منهما على ظهر الآخر، يحيطان ركبتيهما بساعديهما، ينعكس ظلهما بجوارهما بنفس حجمهما من أثر شمس الشتاء الدافئة، يختلط حولهما صوت العصافير بضجيج السيارات المارة في نهر الطريق الممتد في نهاية الربوة المنحدرة.

استهلت حديثها معه وهي تُشبك أصابع كفيها دون الإبهامين، وتحرك كل منهما في شكل دائري يحاول اللحاق بالآخر:

– وحشتني.

– فعلاً!

عادت برأسها للخلف ملامسه أعلى فقرات ظهره، يداعب شعرها المتطاير ملامح وجهه.

– ما وحشتكش؟

obeikandl.com

أجابها متجهمًا:

- واضح من حرصك على لقائنا!

- غضب عني، تفتكر إني وافقت عليه بسهولة؟ طيب قولّي أعمل إيه؟ بعد كل اللي رفضتهم.

صمتت لبرهة ثم تابعت بصوت خفيض:

- وده مافيش فيه عيب؟

نظر يسارًا وجد خيالهما طال لضعف حجمهما:

- فعلاً ظروفنا كانت أكبر من حبنا.

- ممكن نرجع أصحاب تاني؟

- حبيبتي.. ما ينفعش لإننا ما كنَّاش أصحاب أولاني.

- ليه بتعقَّد الموقف؟

- وأنتِ ليه بتبسَّطي الموقف؟

نظرتِ للسماء متأملة فضاءها الرحب الذي لم يسع حبهما، توقفتِ عن ملاحقة إبهامها للآخر، وبنبرة غاضبة:

- ما تتكرش إنك بنيت لي قصور من الخيال، غمضت عيني.. وسندت ضهري على ضهرك لما قلت إننا وجهين لعملة واحدة مش ممكن نفترق.. ولما فتحت عيني ما لقيتش غير سراب.. دلوقت بتلومني علشان نزلت على أرض الواقع؟

ترقرقت عبرة من عينه، عندما أحس بحشرجة صوتها، لمح بطرف عينيه خيالهما وطوله الذي وصل حد الرصيف الحائل بين ربوتهما وسيل السيارات:

-بالرغم من إحساس الشجن وألمه، إلا أننا استعذبنا وجعه.

عاود النظر إلى خيالهما، وجده تعملق وازداد طولاً عندما أوشكت الشمس على المغيب واصلاً إلى منتصف الشارع.. تذكر ما كانا يفعلانه سابقًا وهما يهرولان خوفًا على خيال حبهما.. وخزها كعادته:

- العربيات هتدوسنا!

- مابقاش مهم.

تابعت بعد صمت مطبق:

-أنت قولت إننا وجهين لعملة واحدة.. إنما نسيت تقول إن وجهين العملة عمرهم ما يشوفوا بعض.

نهضت، ونهض، تابع كل منهما سيره في اتجاه غير الآخر.. دون أن ينظر خلفه.

٢٠١٢/٢/١٤

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

في المعقول

صعد درجات السلم لاهثًا ومن خلفه زوجته النحيلة المشرفة على الخمسين، وابنته الأصغر ذات الأربع عشرة عامًا، شغلت نقرات منسأته لحظات السكون كلما صمت المقرئ أثناء تلاوته لآيات الذكر، تعلقت أعين المعزِّين بالباب لرؤية صاحب النقرات المهيبة.. تشبَّث بالباب المصقول المشرع، وتقدم بخطوات مثقلة في باحة البيت الرحبة، لمح بطرف عينيه زوجته بملابسها السوداء وابنته يدلفان إلى الحجرة المجاورة، وهن يجلسن بين النساء.

تلقَّفه أهل المتوفى، مد يده متمتمًا:

-البقية في حياتكم.

اصطحبه أحدهم، ترك عكازه بين قدميه وهو جلوس، خفض عينيه يهندم هيئته، أعجزه (كرشه) المتضخم عن ضم سترة بدلته الرمادية، أنصت للتلاوة متبادلاً بين حين وآخر نظراته مع زوجته وابنته وهما في الحجرة المقابلة:

"وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا"[٢٤]

٢٤- سورة الإسراء ، آية ٢٣.

مـرر يـده علـى صلعتـه الممتـدة، مجففًـا عرقـه دون ملامسـة البقيـة الباقيـة مـن شـعره الأبيض علـى جانبـي رأسـه، ترقـب وصـول المـار بـين المعزِّيـن يحمـل فناجـين القهـوة، وهـو يتحـرك برويـة خوفًـا مـن فقـدان (وش) الفنجـان، اعتـدل في جلسـته عنـد وصولـه إليـه، ودنـا منـه هامسًـا في أذنـه:

- كوباية شاي، لو سمحت.

نظر إليه مستغربًا، وسأله:

- سكرك إيه؟

أجابه بهمس:

- في المعقول.

وهـو يمـد علـى قـدر مـا يسـتطيع في قوله (المعقـول)، تابع خطوات المضيـف أثنـاء ذهابـه لتلبيـة طلبـه، مسـتمرًّا في إنصاته للمقرئ:

"وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا[٢٥]"

تشـاغل بمحـاولات خفـض (كرشـه) ليـرى موضـع منسـأته علـى الأرض، انفرجـت أسـاريره عندمـا رأى كـوب الشـاي الأحمـر القانـي في طريقـه إليـه، تتصاعـد منـه الأبخـرة المتلاشـية في الفـراغ.

٢٥- سورة الإسراء، آية ٢٤.

أمسك بكوب الشاي، ودنا به نحو فمه.. جذبت يد ابنته كوب الشاي من على فمه، عائدة لمجلس النساء.. قائلة بصوت مسموع:

ـ علشان السكر والضغط.

بادل نظرات المعزين المستغربة بابتسامة بلهاء، متشاغلاً بمحاولات خفض (كرشه) ليرى موضع منسأته على الأرض.

٢٠١٤/١١/٨

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

آنسة حنين

أوقف سيارته بالقرب من (المول) التجاري الذي كان فيه أمس، حمل الأكياس التي يرغب في استبدال ما بداخلها، استدار حول سيارته حتى وصل إلى باب المقعد المجاور له، فتحه لكي تخرج منه طفلته (حنين) ذات السنوات الأربع، عاين الموظف المختص عن عملية الاسترجاع الملابس متأكدًا من حالتها الجيدة وتاريخ الفاتورة، قدَّم بشكل ميكانيكي فاتورة أخرى تمكنه من استبدال مشترياته.

صعد للطابق العلوي الخاص بملابس الأطفال ..اتجه مباشرة إلى فستان أعجبه بالأمس، أمسك بشماعة الفستان طالبًا منها أن تستدير، نزل على أطراف أقدامه، وضع الفستان على كتفيها من الخلف، ابتسم ابتسامة رضا، محتفظًا به في سلته، مضى بعض الوقت أثناء بحثه عما يناسبها، تأففت متململة، حاول استمالتها بملابس العيد.

لم يتبقَّ له سواء شراء (حقيبة يد) لها، تشبثت هي بأول حقيبة رأتها:

- يا (حنين) دي شنطة بتاعة بنات كبار.

openkandl.com

- طب آخد دي.

- دي كمان كبيرة عليكِ.

- خلاص آخد الصغيرة دي.

- دي شنطة صغيرة علشان (سواريه).

- لأ دي صغيرة، أنا عايزاها.

فشل في محاولة التأثير عليها، مقترحًا حلاً بديلاً:

- خلاص ناخدها معانا، ونشوف لو مفيش شنطة عجبتك ناخدها.

- موافقة يا بابا.

توغل هو وابنته في قسم الأحذية والحقائب النسائية صوب قسم الأطفال، توقفت عن المشي أمام إحدى الحقائب التي أثارت اهتمامها، وبأصابع لا تكاد أن تُرى:

- عايزة الشنطة الصفرا دي.

- دي ممكن تنفع لماما.

- طب السودا.

- دي كمان بتاعة ناس كبار زي ماما.

obeikandl.com

بضيق وتأفف:

- هو كل حاجة ماما.. ماما.

أسرع في خطواته قليلاً حتى وصل إلى قسم الأطفال، محاولاً إثارة فضولها بالألوان البراقة.

- اللّه.. شايفة شنطة (باربي)؟

عقدت حاجبيها:

- لأ.. وحشة.

- طب (الأورانج)؟

- وحشة.

- دي أجمل.. شنطة على شكل (بوبي).

- لأ.. مش عايزاها.

امتعض غاضبًا.

- طب أنت عايزة إيه دلوقت؟

- عايزة الشنطة الصغيرة اللي أخدناها من فوق.

obeikandl.com

عقد مناظرة بين الحقيبتين مقارنًا بينهما موضحًا مزايا الأنسب لسنها، أصرت مجددًا متمسكة باختيارها، روى لـ "الأم" قصته عبر الهاتف، روت كذلك (حنين) قصتها مستجيرة بأمها من رجعية أبيها، أقنعتها الأم بعرض أبيها على مضض، مستخدمة حلولها السحرية لشخصية ابنتها، ذهب (للكاشير) مقدمًا له الفاتورة السابقة بقيمة المشتريات التي استبدلها ودفع الفارق.

داعبها (الكاشير) وهو يخرج أوراقًا تملأ الحقيبة المنتفخة:

– الشنطة دي بتاعتك؟

أجابته بإيماءة دون اكتراث، أخرجتها من الكيس، وزَّعت عملاتها الورقية والفضية على جيوب حقيبتها، عادت إليها ابتسامتها، عبرا الشارع وهي تقذف بحقيبتها في الهواء، فتح لها باب السيارة مداعبًا:

– اتفضلي يا آنسة.

رفعت رأسها لأعلى مندهشة.. وأغمضت طرف عينيها بدلال أنثوي.

٢٠٠٩/٣/٢٣

●●●

لحظة مضطربة

استيقظت من سباتي على ضجيج متسللاً من شرفتي في ساعات باكرة من الصباح، وضعت وسادة فوق رأسي متأففًا من صخبهم بالرغم من أنني من سكان الطابق الخامس، استدعيت قدر من لحظات النوم الهانئة محاولاً انشغالي بأشياء غير تلك التي تضج مسامعي إلى أن دخل مسرح الأحداث زمجرة جرافة أجهزت بالضربة القاضية على محاولاتي اليائسة.

فتحت باب الشرفة الزجاجي ومن ورائه الشيش، حتى رأيت ما أخذ بلبابي، أوشك العمال على الانتهاء من حفرهم لدائرة عميقة حولها كشفت عن عورتها المتوارية بقاع الأرض، دونما أن يستر أياً من الواقفين جذورها.

تقدم سائق الجرافة بدم بارد، رفع شوكته نحو جزعها محاولاً اغتصابها ليجبرها على الانحناء، دفع نخلة مدرستي الابتدائية العملاقة يميناً ويساراً وهي تقاومه، حاول مراراً وتكراراً إلى أن خارت قواها، وكانت لحظة السقوط .. شرد ذهني في تلك اللحظة المضطربة بين هبوطها من عليائها نحو الهاوية.

تذكرت أول لقاء بيني وبينها، حينما كنت طفلاً وحيدًا أتحسس محيطى الخارجي لأول مرة محاولاً إدراكه بمدرستى الابتدائية المجاورة لبيتي. كانت نخلة مدرستي ممشوقة القد تاج يزين حديقتها، القاها كل يوم عند مدخل المدرسة مبتسمة بهية، وفي نهاية اليوم الدراسي متمايلة بأفرعها ودودة حانية، توطدت علاقتي بها ولم تخذلني يوماً ما.. أصبحت ملجئي أتوارى بجسدي النحيل خلف لحمها ونحن نلعب "الاستغماية" أو عندما أفر من أحدهم وألوذ بها مراوغاً.

كنت أختصها بالرعاية في حصة التربية الزراعية مطبقاً عليها معلوماتي الضحلة وأنا في العاشرة، مقدراً تحملها لجهلي العابث بها. ذهبت فتيات فصلي في أحد أيامي الدراسية إلى حصة التدبير المنزلي، ونحن إلى التربية الزراعية، استجمعت شجاعتي وأنا في حضرتها موجهاً سؤالي إلى مدرس التربية الزراعية:

- حضرتك اللي زرعت النخلة دي يا أستاذ؟

ابتسم ساخراً:

- لأ طبعاً.

obeikandl.com

تماديت في سذاجتي غير مبالي بهمزات زملائي:

- مين اللي زرعها؟

صمت بعض الوقت، طالباً منا الجلوس متحلقين حولها، واتكأ بساعده عليها:

- ممكن أقولكم حكايتها، بس هتفهموا كلامي؟

أبديت تفهمي لما سيقول، وهززت رأسي بين أقراني مبدياً تجاوزًا لسنواتي العشر:

- أيوة يا أستاذ.

- على أي حال هحكي لكم، فهمتوا ولا مفهمتوش مش مهم:

مشيراً نحوي بإبهامه:

- بس أنا متأكد إنك هتفهم، لأن من يسأل سؤال قادر على تحمل إجابته:

- زمان قبل ما تتولدوا كلكم ، كان القصر ده بتاع واحد من النبلاء:

نظر لأفواهنا الشاغرة:

- واحد باشا من اللي بتشوفوهم في الأفلام الأبيض واسود وهو نازل على السلم لابس روب، أيامها كان فيه ملك،

obeikandl.com

وبعد "ثورة إنجي وعلي" الي حصلت في ٢٣ يوليو في فيلم "رد قلبي".

ارتسمت على وجوهنا علامات النجابة:

- آآآآآآه.

- القصر هو المدرسة اللي لماكو دلوقت بعد حاجة اسمها قوانين يوليو الاشتراكية.

بلغ الغباء بنا مبلغه، وكسر حاجز الصمت جرس نهاية الحصة، أشار بكفه نحونا بالنهوض، متابعاً حديثه:

- أكمل لكم بعدين.

ولم يُكمل .. ولم أكمل، واحتفظت بتلك العلاقة الحميمة الخافتة بيني وبينها، جذبت السنون كل منا بعيداً عن الآخر. وسافرت مع من سافروا .. وتزوجت مع من تزوجوا .. وأنجبت مع من أنجبوا. سألت حينها عن مدرستي من أجل ابنى، وعلمت إنها لم تعد. وأصبحت مبنى مهجور بعد حكم رفع الحراسات.

عاودني الحنين إلى خليلتي القديمة، كلما وقفت في شرفتي بالطابق الخامس، أطالعها بندية، جزعها الصلب الممتلئ وأفرع جريدها منطلقة في كل صوب، مطلة على مجد مدرستي الزائل،

مطلقة العنان لشعرها يفعل به الهواء ما يشاء .. أدركت حينها أنها كبُرت..وكبِرت.

إلا أن علاقتنا شابها بعض التوتر ولم تعد كتلك التي كانت، أصبح طولها الفارع وخصلاتها المتطايرة تحجب عني رؤية ما وراءها، غير قادر على مشاهدة أول الشارع بسببها، وكلما انحنيت بجزعي خارج شرفتي، تحول بيني وبين ما خلفها .. راسمةً بأفرعها ابتسامة ماكرة على محياها .. وكلما سمعت صوت الرعد، أهرول للشرفة متابعًا رياح الشمال تجذبها بعيدًا مشاهداً من خلفها أول الشارع، هكذا أصبحت العلاقة بيننا كر وفر.

وانقضت اللحظة المضطربة بارتطامها بالأرض.. التفَّ العمال حولها مطوقين رقبتها بحبل .. رأيتها تنظر نحوي بخيبة أمل.. تسحلها الجرافة بطول الشارع.. ومضى اليوم ويوم وآخر .. غير قادر على النظر تجاه الفراغ الذي تركته خلفها.

٢٠١٢/١١/٤

●●●

obeikandi.com

obeikandl.com

تنهيدة

(١)

حضـرتُ في صبـاح يـوم جامعـي، تخطـو بثبـات بكامـل زينتهـا كعهـدي بهـا، فهـي مـن أجمـل بنـات (الدفعـة).. أو هكـذا أراهـا...

– صباح الخير.. فين (ياسر)؟

– مع (أمجد) و(آية) عند مدرج (ألف).

اتجهـتُ مسـرعة نحـو المـدرج، حيـث (أمجـد) علـى مقربـة مـن المـدرج مـع رفاقـه:

– شوفت ياسر؟

– بيحجز لنا.

دلفت داخل المدرج باحثةً عني، أشرتُ إليها بالصعود، وأشارت إلي بالنزول، نثرتُ أدواتي على المقاعد مهرولاً نحوها، انتظرتني بالخارج متكئةً على جدار المدرج، دنوتُ منها قائلاً:

– خير؟

obeikandl.com

زاغتْ عينيها محتضنة أجندتها:

- حبيتْ أتكلم معاك.

- عينيكِ بتلمع، اعترفي.

- أشرف زاهر..

- ماله؟

- إيه رأيَك فيه؟

- من أي زاوية؟

نظرتْ نحو أظافر قدمها بلونها الأحمر البراق المطلة من مقدمة حذائها الخريفي:

- طلب إيدي.

تقلصت ملامحي:

- بس.. بس خطوبتك الأولى انتهت من شهر.

- علشان كده لازم أتخطب بسرعة.

- ليه لازم؟

صمتتْ ورفعتْ رأسها:

obeikandl.com

- محتارة، ومحتاجة رأيك؟

وضعتُ يدي في جيبي ماطًّا شفتي ناظرًا إلى ما كانت تنظر إليه في الأرض، قبضت أظافر قدميها، خبأتها داخل حذائها تاركة مساحة بحجم مرآة أظافرها، غُصتُ عبر تلك المساحة عائدًا إلى لقائنا الأول منذ سنة.

●●●

obeikandl.com

(٢)

حيث كنت بذات الهيئة واقفًا على باب المدرج أكثر حيوية بين رفاقي، تملؤنا البهجة في ملابسنا (الكاجول) بعد تمزيقنا (للزي المدرسي الموحد) منطلقين نحو آفاق عنفوان شبابنا، تعلو ضحكاتنا كلما روى (أمجد) إحدى نكاته الإباحية.

وقعت عيني عليها في تلك اللحظة عند قدومها، لم استطع أن أغلق فمي، أقبلتْ بشعرها الكستنائي المتهدِّل فوق جبينها الأبيض يدنو من عينيها العسليتين، متطايرًا خلف كتفيها على وقع دبيب كعب حذائها، يمنحها ثقة بادية على نظراتها غير العابئة بمن حولها، مرتدية فستانًا (برميليًّا) لونه أخضر زيتوني من التريكو، ذا جناحين ملائكيين فضفاضًا، يشتد ضيقه أعلى الركبة، مخفيًا أسفله قوامًا مرمريًّا، تخبو وتظهر ثناياه بين خطوة وأخرى، تجاوزتنا نحو المدرج، تاركة خلفها عطرًا يسلب الألباب. أغلقت فمي سائلاً (أمجد):

- مين دي؟
- (أمل وجدي) صديقة (آية).
- هحضر معكم النهاردة.

obeikandl.com

– ليه؟ أنت حرف (الياء) وحضورك في مدرج (جيم)؟

دفعته أمامي متجاهلاً سؤاله، صعدت خلفه على مهل، متتبعًا ارتقائي نحو مجلسها بجوار (آية)، وجلسنا خلفهما، أخرجت من حقيبتها ألبوم صور، تدانت رأساهما تشاهدان الألبوم، وتتبادلان الهمسات والضحكات:

– صباح الخير (آية).

التفتتْ خلفها:

– أهلاً أمجد.. مين.. ياسر!

لحقتها قبل أن تستفيض، مشيرًا بعيني نحو صديقتها:

– آه ياسر، معك قلم سلف؟

ادَّعتْ البحث في حقيبتها:

– لأ.. معاكِ يا (أمل)؟

– اتفضل.

أمسكت (آية) بالقلم وما زال على وجهها علامات الحيرة:

– اتفضل يا عم ياسر.

– شكرًا.

obeikandl.com

– الشكر مش ليَّ.. الشكر لآنسة (أمل).

ابتسمت محاولاً الإطالة:

– شكرًا آنسة أمل.

عقبتْ بإيماءة دون أن تلتفت خلفها، وتابعت الاثنتان المشاهدة، تلصصنا من خلفهما مداعبين ما أثار ضحكاتهما، أذابت (آية) المسافة الجليدية بيننا جميعًا بقولها:

– عندِك مانع نفرَّجهم على الألبوم؟

ترددت قليلاً، ثم قالت:

– طالما أصدقائك.. مفيش مانع.

وضعته أمامنا:

– اتفرجوا بهدوء.

انقضضنا عليه مقلِّبين صفحاته، تبلدت ملامحنا عندما شاهدنا صور حفل خطوبة، علق (أمجد):

– صور خطوبتها يا ياسر؟

– ممكن تكون أختها!!

– لأ.. صورها هي، البنات بتتشقلب في السوارية.

obeikandl.com

- تفتكر؟

- نرجِّع الألبوم ونقول مبروك ونشوف رد الفعل.

- مبروك.

لحقتنا (آية) بالإجابة:

- عجبتكم صور خطوبة أمل، اتخطبت لابن عمها في الصيف وسافر للخليج.

دخل الدكتور المدرج حاملاً حقيبته، اعتدل الطلبة في جلوسهم، وبقيت متبلدًا في موضعي، نقر ثلاث مرات بإصبعه على الميكرفون:

- صباح الخير، محاضرتنا اليوم عن (النسق الاجتماعي).

●●●

obeikandl.com

(٣)

لـم أتألـم كثيـرًا، كمـا أن خطبتهـا لـم تثنينـي عـن الحضـور في مدرج (ألـف)، هجـرت مـدرج (جيـم) متحيِّنًـا أي فرصـة للتقـرب إليها، ملازمًـا لهـا حتـى ولـو مـن بعيـد، حريصًـا علـى أن يكـون جلوسـي خلفهـا بصـف أو صفيـن بزاويـة مائلـة، تبقيهـا دومًـا في مرمـى بصـري، توطـدت علاقتنـا أكثـر فأكثـر، وإذا ظفـرت بمقعـد بجوارهـا، أمسـكت بالدنيـا ومـا عليهـا، لـم أسـلم مـن تعليقـات بعـض الزمـلاء، وكلمـا وجـه إلـيَّ أحدهـم اللـوم، مسـتفهمًا عـن ماهيـة العلاقـة، أسـتنكر سـؤاله معلـلاً:

– أنت أهبل (أمل) مخطوبة.

أصبـح خفقـان قلبـي مصاحبًـا لجلوسـها بجـواري مـع مـرور الوقـت، مسـتعذبًا عذابـي قابضًـا علـى مشـاعري الأفلاطونيـة، كانـت رؤيتهـا هـي السـلوى، صـرت صديقهـا الأقـرب، ولـم تعـد تخفـي علـيَّ أمـرًا حتـى في أدق تفاصيلهـا العاطفيـة. اطَّلَعَتْ علـى بعـض خواطـري حينمـا كنـت بجوارهـا في محاضـرة الأنثروبولوجيـا، أمسـكتُ بقلمـي الرصـاص أخـطُّ كلمـات تحمـل بـين ثناياهـا تلميحًـا لا تصريحًـا، جذبـتْ الأجنـدة مـن بـين يـدي وقـرأتْ:

"هي الدنيا كده بحالات

ساعات تدِّينا وتكفِّينا

وساعات تُخنقنا من سُكات

ولو الفرح في مرة زاد

نضحك بخوف من بكرة اللي جاي

لا بغدره يبكينا ويكسر الضحكة فينا

والآه تخلع قُلوبنا ونعيش زي الجماد

وفي العتمة نقف نصلي

يا رب احفظنا ف ثبات

ونرجع نشكر على الفرحة القليلة

حتى لو كان عمرها ساعات[٢٦]"

– الله.. أنت شاعر بقى وأنا مش واخدة بالي.

– لا شاعر ولا حاجة.. مجرد شخبطة.

– لما تكتب حاجة جديدة خليني أقرا شخبطتك.

٢٦- الخاطرة من مدونة / Mood Dot .

obeikandi.com

وعـادت لمتابعـة المحاضـرة، وبقيـت منشـغلاً، هـل أصـرِّح بمـا يعتريـني عبـر الخواطـر.. أَعتـرف؟ كيـف لـي أن أفعل وهـي مخطوبـة؟ نفضـت عنـي أفـكاري الشـيطانية مكتفيًـا بـدور الصديـق. جـاءت في عامنـا الثانـي معلنـةً انتهـاء خطبتهـا علـى ابـن عمهـا دون أسـباب مفهومـة، معللـةً ذلـك بأمـور عائليـة، دبـت الحيـاة في أوصالـي تـاركًا لهـا فتـرة نقاهـة لتتجـاوز أزمتهـا لأعلـن سـري الدفـين، رافضًـا دخـول حياتهـا مـن بـاب الحـب البديـل.

●●●

obeikandl.com

(٤)

نقرتْ بقدمها على الأرض، حيث انظر:

- ياسر.. أنت سَرَحتْ؟

أخرجتُ يدي من جيبي، رفعتُ رأسي نحوها:

- أبدًا.. أشرف زاهر من عيلة ومبسوط، بس..
- بس إيه؟
- يعني مش عارفة؟
- قصدك علاقاته!! كل الشباب كده وبعد الجواز بيتغيروا.
- تفتكري؟
- لازم اتخطب بسرعة، ومفيش حد اتقدم غيره.

شعرت بأنني أقف على حد السيف، لا يفصل بيني وبينها سوى تلك المسافة القصيرة الطويلة، متحيرًا في أمرها.. ألم تجد غيري تسأله عن (عريس الغفلة) الراغب في احتلال مكانة أنا جدير بها؟ تسارعت دقات قلبي على نحو مسموع.. أأخبرها! أم أستمر في صمتي؟! لاعنًا ما حييت إهداري لفرصتي الأخيرة، شقت الأحرف طريقها جاهدةً للخروج بصوت غير مسموع:

obeikandl.com

- ممكن يكون في حد بيحبك أكتر منه.

توددت متوسلة:

- مين؟

رأيت البرهان في بنانها يستجديني، ملأتُ رئتي بالهواء مخرجًا تنهيدة طويلة.. طويلة.

- أنا.. أنا بحبك.

عادتِ بنظرها أسفل قدمها:

- كنت عارفة من زمان، وصلني إحساسك من خواطرك.

قاطعتُها:

- كنت مخطوبة.. وخفت أخسرك.

- بس.

- بس إيه؟

- أنت قدامك كتير.. وأنا مقدرش استنَّى.

- محدِّش هيقدر يسعدك زيِّي.

- السعادة إني أجيب اللي نفسي فيه.. مش كفاية حب الخواطر.

obeikandl.com

هـرول الطلبـة يسـبقون الدكتـور لداخـل المـدرج، وأنهـتُ الأمـر بجملـة إجرائيـة:

– المحاضرة هتبدأ.

– اتفضلي أنت.

دلفـتُ المـدرج غيـر منتظـرة إجابتـي، ارتقـت الدرجـات نحـو مقعدهـا، أمسـك الدكتـور بالبـاب:

– مش هتدخل؟

نظـرت إلـى اللوحـة المكتوب عليهـا (مـدرج ألـف)، وهـززت رأسـي نافيًا:

– أنا آخر الحروف الأبجدية.

ابتسم مهوِّنًا.. وأغلق الباب.

٢٠١٣/٢/١٤

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

رامي ٢٠١٥

"ما خطرتش على بالك يوم تسأل عني.. دي عينيا مجافيها النوم يا مسهرني.. أُمَّال غلاوة حبك فين.. فين الوداد والحنِيَّة" هكذا عاتب أحمد رامي شعرًا أم كلثوم، عندما لم تسأل عنه وهو في منزله، كاتبًا آخر أعمالهما معًا (يا مسهرني).

تأنقتُ.. مثلما كان يفعل دومًا وهو في طريقه لحفلاتها الشهرية، ليستمع هو لأم كلثوم، وأستمع أنا لفرقة أم كلثوم الزائرة للكويت في ليلة من صيف يونيو، جلستُ في مجلسي بالمسرح مترحِّمًا عليه، فهو ممن فارقونا في يونيو.

مضت لحظات الانتظار ثقيلة مملة بين همهمات جماهيرها الغفيرة في الماضي والحاضر، صفَّقتُ مع المصفقين بعدما أطلت فرقة أم كلثوم على خشبة المسرح بكامل هيئتها، وانسابت الألحان تهب الحياة لسحر الماضي في وجدان الحاضر.

انبرت إحدى عضوات الفرقة محتلةً صدر المسرح، دنت من الميكرفون بعودها الباسق تكسو بشرتها سمرة النيل، تدندن مع عزف مقدمة أغنيتها الموسيقية، فراشة تتمايل بفستانها الشيفون الأسود مطوقًا جيدها إطار فضي، زادها بهاءً على بهاء، تحملها ساقان في جورب أسود.

obeikandi.com

"هجرتك يمكن أنسى هواك.. وأودع قلبك القاسي" هكذا استهلَّت بأشعار رامي، استحضرتُ روحه لتتلبَّس جسدي.. جلستُ مجلسه في حضرة أم كلثوم، متكئًا برأسي على كلوة يدي مثلما كان يتكئ، متوحدًا مع الكلمة مثلما كان.

"غصبت روحي على الهجران.. وأنت هواك يجري ف دمي.. وفضلت أفكر في النسيان.. لما بقى النسيان همي" شرد ذهني، ألهذا الحد كان يسرد رامي علاقته بأم كلثوم؟ ألهذا الحد اختصَّها بمنزلة الملهمة عن الزوجة؟ ألهذا الحد خشي أن يقتل الزواج حبه لها؟ ألهذا الحد آثر أن يعيش كل معاني الحب فيها، الصبابة.. الشغف.. التباريح.. اللوعة.. السهد.. الوله.. الجوى؟ وكيف تأتَّى له أن يسمع نجواه لها منها؟ وكيف تأتَّى لها أن تنتشي مرتقيةً عرش مجدها على وجده؟

اختتمت مطربة فرقة أم كلثوم بـ"وكان هجري عشان أنساك.. وأودع قلبك القاسي.. لقيت روحي في عز جفاك.. بأفكر فيك وأنا ناسي".

صفقت لها بحرارة.. ودموع رامي تتساقط من عيني.

٢٠١٥/٦/٦

●●●

حكيم عيون

- أهلاً دكتور (حكيم).

- إزَّيك يا (سعيدة).. كم حالة عندنا اليوم؟

- حالتين.

- أول ما يوصلوا دخَّليهم وبعد ما يمشوا نقفل العيادة ونروَّح.

ابتسمتْ متعجِّلة انقضاء الوقت شوقًا لنزهة نهاية الأسبوع مع خطيبها، فتحتْ باب حجرة الكشف بحركة سريعة.

- اتفضل يا دكتور.

خلع عنه سترة بزّته، وضعها على ظهر كرسي المكتب على يمين الباب، فتح الكمبيوتر مشغلاً بعض المقطوعات الكلاسيكية لـ(برامز)، تراجع بظهره إلى الخلف متحسسًا ظهر الكرسي تاركًا جفنيه يسترخيان مع صوت الموسيقى، ثم فتح جفنه قليلاً متأكدًا من عمل التكييف بالرغم من تأثره بالبرودة.

طرقت (سعيدة) باب المكتب طرقًا خفيفًا.. لم تنتظر إجابته، تركت فنجانًا من القهوة على المكتب، وخرجت في صمت دون أن

obeikandi.com

تستمع منه لكلمة شكر، مدركةً أبعاد حالته المزاجية المتباينة بين حين وآخر، استمر في سكونه تتخلله الموسيقى، مشاهدًا شريط سينما يمر أمام عينيه المغمضتين، مستعرضًا روتين حياته اليومية وهو ما زال في الثلاثين من عمره، صباحًا في مستشفى العيون، المكتظ بحالات تدمي قلبه، وما تعانيه من فقر وجهل وعدم إدراك لقيمة العين، ضعف الإمكانات المادية والبشرية، انخفاض تأثير المادة الفعالة في الأدوية، ينتصف يومه عائدًا إلى بيته سويعات، يقضيها مع زوجته وطفله، يذهب إلى عيادته في السادسة مساءً، ومن بعدها إلى بيته ثم المستشفى صباحًا وهكذا.

عاد بذاكرته إلى أبعد من يومه، عندما قرر التخصص في طب العيون، عشقًا في سحرها وعمقها وخاصة العيون السوداء التي تُسبيه، لإجادته قراءة لغة العيون والتوغُّل من خلالها لفك طلاسم الشخصية، تحول عشقه للعيون إلى شفقة عليها، فاقدًا عشقه لسحر العيون بعدما لم يعد يرى في عمله إلا الأعين المريضة.

طرقت (سعيدة) الباب ودخلت مبتسمة، ومن خلفها الحالة الأولى:

opeikandi.com

- أهـلاً وسـهلاً.. اتفضلـي يـا مـدام.. بيشـتكي مـن إيـه (الأمّـور)؟

- كان بيلعـب (مهـاب) مـع صاحبـه بمسـدس (خـرز)، أصابـت جفنـه واحـدة بعدهـا عينـه التهبـت.

قـام مـن علـى مكتبـه متجهًـا إلـى جهـاز الكمبيوتـر الخـاص بالكشـف علـى العـين الموجـود في نهايـة الحجـرة يسـارًا.

- اقعد هنا يا (مهاب) على الكرسي الجميل دا.

وهو يرتجف:

- حاضر يا عمو.

- افتح عينك.

التفت يمينًا ممسكًا (بقطرة):

- ما تقلقش هانحط نقطتين وكل حاجة هاتبقى تمام.

تقلَّص مهاب في نفسه من شدة رعبه وفزعه:

- حاضر بس بالراحة.

- شـاطر فاضـل نقطـة كمـان، بـس خـلاص لِـفّ تانـي يـا (مهـاب).

obeikandi.com

تفحَّص (حكيم) قاع العين مجدداً.

- الحمد للّه.. ربنا ستر يا مهاب.

- خير يا دكتور؟

بوجه عبوس مجيبًا على الأم:

- في قرحة بالعين وشرخ في الشبكية نتيجة لقوة الخرزة، يا ريت تخلي بالك يا مدام أكتر من كده، واضح إنك متعلمة.. خلّيتي إيه للجهلة؟ حرام عليكِ الولد.

- أنت عارف الأولاد لما بيشوفوا لعبة ما تقدرش تمنعهم.

وهو يكتب العلاج دون النظر إليها:

- والنتيجة عين ابنك كان ممكن تضيع لولا ستر ربنا.. ياخد العلاج وأشوفه بعد أسبوعين.

- متشكّرين يا دكتور.

- مع السلامة يا (مهاب).

دخلت (سعيدة) لتجهيز حجرة الكشف للحالة التالية، جلس على مكتبه لا ينبس بأي حركة.. لمحته بنظرة جانبية.. متيقنة من أن حالته المزاجية أسوأ مما كان عليه، وبنبرة تأكيدية قالت:

obeikandi.com

– أدخَّل آخر حالة يا دكتور؟

– دخَّليها.

وقفتِ على باب حجرة الكشف:

– اتفضلي آنسة (حنان).

دخلت فتاة في العشرين من عمرها .. ممشوقة القوام، يتدلى على جانبي رأسها شعر كثيف فاحم تخفي معظم ملامحها نظارة سوداء، يتبعها شاب ضخم الجثة يمسك بيدها:

– اتفضلي، اتفضل حضرتك.

رد مقاطعًا وهو يقدم له (بيزنيس كارد):

– (غالب) للاستيراد والتصدير.

– أهلاً وسهلاً.

وضع سلسلة مفاتيحه الذهبية وريموت سيارته المرسيدس على المكتب وهو ينظر في ساعته:

– بتشتكي (حنان) يا دكتور من سحابة ظهرت فجأة على عينيها الشمال بعد خطوبتنا بشهر، وما لحقناش نفرح، وطبعًا ما ينفعش نخرج وأنا سحبها.

obeikandl.com

نهض (حكيم) من خلف مكتبه:

- اقلعي النظارة واقعدي هنا على كرسي الكشف.

لمح (حكيم) في عينها اليمنى غير المصابة.. حزن وانكسار بيّن بالرغم من روعتها وسحرها وعمقها ولونها الأسود الفاحم الأخّاذ:

- الحكاية دي حصلت إزاي؟

- حسيت بسحابة ورؤية غير واضحة فجأة.

- بتشتكي من صداع نصفي بشكل دائم؟

- أيوه والضغط عندي مرتفع بشكل دائم.

- في علاج بسيط إن شاء الله يساعد على توسيع حدقة العين بحيث تقدري تشوفي أحسن، لازم ما تعرّضيش عينك لضوء مباشر، ولو ما حسّيتش بتحسُّن هانعمل عملية بسيطة بعد فترة بحيث الهالات الموجودة على عينك تروح، علشان تشوفي الدنيا بنظرة أجمل.

انفرجت أسارير (غالب):

- يعني في أمل يا دكتور ترجع طبيعية؟

obeikandl.com

- بإذن الله.

- طمنتني.

أجابه بابتسامة باهتة، خرج وهو يسحبها.. أغلق (حكيم) الكمبيوتر:

- أجازة (سعيدة) يا سعيدة.

- شكرًا يا دكتور.

ركب سيارته متلاشيًا وسط الزحام، مغنيًا:

"حكيم عيون أفهم في العين.. وأفهم كمان في رموش العين.. أعرف هواهم ساكن فين.. وأعرف دواهم ييجي منين.. قاسيت كتير منهم..[٢٧]".

٢٠٠٨/٥/٢٧

●●●

٢٧- أغنية حكيم عيون، كلمات حسين السيد، تلحين وغناء محمد عبد الوهاب.

obeikandl.com

وخمسة

تسلل شعاع شمس الصباح الأخير لهذا العام إلى مخدعه مداعباً جفونه، حاول إزاحته بيده لكنه لم يستجيب، نهض متململاً بعد رنين منبهه في السابعة وخمس دقائق، ذم بنطلون بيجامته الحريرية حول خصره، مسح مرآة الحمام الضبابية بظهر يده، متحققاً ممن يبدو فيها، تحسس لحيته النابتة بأطراف أظافره، تيقن من صوت احتكاكها بأنها تستحق الجز.

أنهى طقوسه الصباحية بالحمام، ارتدى بذلته الصوف الرمادية ذات الخطوط المتقاطعة متدثراً داخلها بجسده النحيل، حمل حقيبة أوراقه من خلف باب حجرته الشاهق في الثامنة وخمس مثلما يفعل منذ زواجه، أطلت عليه بابتسامتها المشرقة وملابسها البيضاء الشفافة بالرغم من برد ديسمبر، جذبت له مقعدًا، ومدت يدها بقطعة توست مغطاة بالزبد والتوت البري، لثَّمت خده بقبلة صباحية مقدمة إليه قهوته.

ذكرته رائحة القهوة بأُمِّه حينما كانت تجلس مجلسها بجوار أبيه، يلهو بينهما في بهو شقتهم العتيقة، مختبئاً من نظرات أبيه خلف ذلك الجدار الفاصل بين مجلسه والشرفة المطلة على النيل، شاهد على الجدار ساعة (شارلي شابلن) المعلقة على الحائط

obeikandi.com

بدقاتها الدءوبة والتي اشتراها له أبيه لينضبط في مواعيده ومذاكرته.

نبتت على شفتيه ابتسامة وجلة، مستذكراً تعنيف أبيه لتأخره الدائم على موعد مدرسته، فر منه حينها مختبئاً خلف جدار الساعة، مطلاً من ورائه مثلما أطل (شابلن) حذراً من رجل الشرطة في لقطته الشهيرة بفيلمه الصامت "الطفل" ، حينها صدحت ضحكة أبيه، مشيراً إليه بالإسراع إلى مدرسته.

استفاق على دقات الثامنة والنصف، أسرع وفاءً لأبيه، حمل حقيبته مسرعاً نحو الباب، جذبت زهرة توليب بيضاء من المزهرية، ولحقته:

- مامي حجزت لنا في مركب نقضي فيها أول راس سنة تعدي على جوازنا واحنا في عرض النيل.

نظر لحقيبة يده ولها، هز رأسه مطمئناً، طوقت رقبته، ضمها بيده الخالية، ناظراً في ساعة يده الحاملة للحقيبة.. مط شفته قائلاً:

- بقت وخمسة.

هرول إلى طلب المصعد، لحقته بالتيوليب:

- خليها جنبك علشان متتأخرش عليَّ.

ركل المصعد، ونزل على السلم، ترك (التيوليب) على المقعد المجاور، منطلقاً بسيارته، اعترض طريقه زحام زائد عن الحد، صرخ في السيارات المعترضة طريقه غاضباً:

- مستعجل على إيه .. هي السنة الجاية مش هتيجي بكرة؟

وصل مقر شركته العقارية متأخراً، أخرج من حقيبته ملفه المتخم، "التقرير المالي للاجتماع التحضيري لمؤتمر السندات العقارية"، واتجه نحو قاعة الاجتماعات.

اعترض طريقه اثنان من زملائه اللدودين، خاطب أحدهما الآخر:

- تشير ساعة جامعة القاهرة إلى العاشرة وخمس دقائق.

احتل مقعده في الاجتماع، مقدماً تقريره لمديره بابتسامه متملقة، وضعه أسفل كافة التقارير متأففاً، تأملهم واحداً تلو الآخر، معيداً كل ملف إلى صاحبه مشيداً بالبعض، وملفتاً انتباه البعض الآخر، إلى أن وصل إلى آخر التقارير، تأمله متمعناً ، زيَّنه بعلامة (X) كبيرة.

obeikandi.com

حدق به مديره حانقاً:

- إيه الكلام الفارغ ده، مش كفاية تأخيرك المتكرر، كمان تقريرك كله أخطاء، راجع أرقامك يا أستاذ، ومتسيبش مكتبك النهاردة قبل ما تبعتلي (إيميل) نهائي.

خرج الجميع من حجرة الاجتماع مطأطئين الرؤوس قاطعين الأنفاس، جلس على مكتبه كابتاً غيظه، أغلق هاتفه وحواسه، منكباً على تقريره، توالت الساعات والفناجين.

اعتدل في جلسته متألماً من ظهره بعدما أرسل (الإيميل)، تلفت حوله لم يجد أحداً، أدار محرك سيارته وفتح الراديو، نذيع عليكم نشرة الحادية عشر مساءً، في الساعة الأخيرة لهذا العام أعزائي المستمعين، التفت ناحية التيوليب الموشكة على الذبول.

فتح باب شقته، صرخت زوجته في وجهه:

- حرام عليك، شوف كم اتصال على تليفونك.

أغمض عينيه متجهاً ناحية شرفته المطلة على النيل، لمح ساعة (شابلن) تشير إلى الثانية عشر ليلاً وخمس دقائق.

ملأ صدره بهواء عامه الجديد، نزع عنه سترته الرمادية، نافضاً أعباء عامه المنصرم، أطلَّ من خلف الجدار المعلق عليه

obeikandl.com

الساعة، نظر إليها بنفس نظرات شابلن مبتسماً، بادلته الابتسامة، أعاد عقارب الساعة خمس دقائق للخلف .. مستعيداً زمنه.

٢٠١٦/٢/١٤

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

كود

الأربعاء، ٠٩:٠٠ ص:

دفعني إلى داخل حجرة التحقيق:

– تمام يا فندم.

نهض من أمام مكتبه، دكَّ الأرض بخطوات هادئة منتظمة، دار حولي دورة كاملة، التفت ناحية شخصين جالسين بأقصى زاوية الحجرة، يرتدي أحدهما معطف أبيض يطوق رقبته بسماعة، تفرَّس الآخر الأنيق ملامحي من أسفل نظارته مدوِّنًا كل شاردة وواردة، عاد للجلوس خلف مكتبه قائلاً:

– اسمك، وسنك، وشغلك؟

– مؤيد سيد حلمي، ٢٨ سنة، مهندس اتصالات.

رمقني بنظرات حادة:

– ما هي أقوالك فيما هو منسوب إليك بمشاركتك في مظاهرة يوم ٩ من الشهر الجاري؟

– أنا مش بتاع مظاهرات، كنت ماشي في الشارع زي بقية خلق اللّه.

obeikandl.com

- هاتستعبط يا روح أمك، والعسكري اللي اعتديت عليه بالضرب والسب أثناء تأدية عمله يبقى إيه؟

- أنا لا ضربت ولا سبِّيت، شوفت في الشارع ناس مدنيين بيعتدوا على بنت، حاولت أخلصها من أيديهم.. لقيتني هنا عندكم.

وضع يده على مجموعة ملفات فوق مكتبه:

- مفيش فايدة من الإنكار.. كل زمايلك اعترفوا؟

- أنا ماليش زمايل.

صرخ في وجه العسكري الواقف خلفي:

- مش تشوفوا شغلكم ولا إيه؟ بكرة يكون جاهز.

انقضَّ على كتفي بيده الغليظة، مؤديًا التحية:

- تمام يا فندم.

أغلق الباب خلفنا وهو يدفعني أمامه في ممر ممتد على يميننا زنازين النساء مدون عليها أرقام بالية بالتتابع (من ١٠ إلى ٦)، وعلى يسارنا حجرات مظلمة تنبعث منها رائحة عطنة، في نهايته انعطفنا يمينًا إلى ممر موازٍ على اليمين زنازين الرجال (من

obeikandl.com

٥ إلى ١)، وعلى اليسار حجرات مظلمة تنبعث منها نفس الرائحة العطنة، ألقى بي في زنزانة (١)، مشيرًا إلى آخر المحتجزين معي بالخروج للتحقيق بعدما تم ترحيل كل من جاء معنا.

الأربعاء، ١١:٠٠ م:

سَمِعتُ خطواته الغليظة تتجه نحوي، سبق دخوله صرير الباب، دسستُ علبة سجائري في بنطلوني، غمرني الضوء المنبعث من وراء الباب، تقوقعتُ في جلستي على الأرض مدققًا النظر، تقدم خطوتين حاجبًا عني الضوء ببنيانه الضخم:

– قوم قامت قيامتك.

نهضتُ، متقدمًا نحوه، جذبني للخارج مغلقًا الباب:

– في تحقيق سواريه يا شاويش؟

دفعني أمامه:

– لأ يا خفيف، الزنزانة كبرت عليك بعد ما كل زمايلك اعترفوا.

– مش هاعترف بحاجة ما عملتهاش.

obeikandi.com

قبـل أن ينعطـف إلـى الممـر المـوازي نحـو حجـرة التحقيـق، فتـح بـاب زنزانـة (٥)، ودفعنـي بداخلهـا:

- هتشرف هنا لوحدك، في وارد جديد الليلة لزنزانة (١).

تلمسـتُ جـدران زنزانتـي الرطبـة الضيقـة، أشـعلتُ سـيجارة، شـاهدتُ علـى ضوئهـا رسـومات بقلـم رصـاص، يتذيلهـا عبـرات تنديـد بالظلـم والقهـر، تجولـتُ مكتشـفًا مـكان إقامتـي الجديـد، دفعـت قدمـاي بشـيء صغيـر إلـى أحـد الأركان، تتبعـتُ مصـدر الصـوت إلـى أن اهتـدتْ يـدي إلـى (كعـب قلـم رصـاص)، وضعتـه بجـوار السـيجارة في فمـي، وجلسـتُ مكانـه.

الخميس، ٠١:٠٠ ص:

اعتدلـتُ في جلسـتي علـى صـوت جلبـة عارمـة بالممـر، أقـدام غليظـة تـركل المؤخـرات.. عصـي تنهـال علـى الظهـور.. صرخـات تتعالـى.. يعلـو فوقهـا صـوت السـباب، أبـواب الزنازيـن تفتـح وتغلـق، أمسـكتُ بقضبـان نافـذة البـاب محـاولاً تبيـان خيـالات الـوارد الجديـد، متشـبثًا بأهـداب العثـور علـى صديـق، إلـى أن خبـت آمالـي مـع نيـران سـيجارتي.

هويتُ محبطًا.. يائسًا.. آسفًا.. واضعًا رأسي بين ركبتي، استفقتُ على صرخات فتاة وارتطامات بجدار زنزانة (٦) الملاصقة لزنزانتي، تعالت الصرخات والارتطامات، وثبتُ على أطراف أصابعي أسارع في خطواتي قاطعًا زنزانتي طولاً وعرضًا، وكلما سمعتُ استجداءها وارتطامها بحائط زنزانتي أهرول مصطدمًا بالحائط محاولاً دفعهم عنها، حاولتُ مرات ومرات أقذفهم بـ(القروانة[٢٨]) تارة.. بالمعلقة تارة.. إلى أن هويتُ على الأرض لا يفصل بيني وبينهم سوى الجدار، خارت قواي ولم أعد قادرًا حتى على النقر بأظافري بعدما نال التعب مني ومنهم.

انتفضت أوصالي مع غلق باب زنانتها، نقرتُ على الحائط الفاصل بيني وبين زنزانة (٦)، سمعت الرد بنفس النقرات، أعدتها.. وأعادتها، أشعلتُ السيجارة الأخيرة أطبقتُ على العلبة الخاوية بأصابعي ملقيًا بها في أحد الأركان، نظرتُ نحو النافذة، مخرجًا زفيرًا معبأ بدخان سيجارتي المتسلل من بين قضبانها.. سحبتُ شهيقًا عميقًا وكتمته.. أمسكتُ بالقلم الرصاص وفككتُ علبة السجائر، وبدأت في كتابة أحرف الهجاء جميعًا وبجوار كل

٢٨- القروانة : وعاء يأكل فيه المساجين.

حـرف مـا يعادلـه مـن رمـوز (شـفرة مـورس[٢٩]).

الخميس، ٠٩:٠٠ ص:

عبـث المفتـاح بالبـاب، نهضـتُ مكـوِّرًا ورقـة السـجائر في يـدي، انعطفنـا يسـارًا نحـو الممـر المـوازي، دنـوتُ مـن بـاب زنزانـة (٦) القيـتُ بورقـة السـجائر مـن نافـذة البـاب.

دخلنـا حجـرة التحقيـق، باديًـا عليـه التوتـر منهمـكًا في مكالمتـه الهاتفيـة:

– أؤمر معاليك.. ساعة زمن وأكون عندك يا باشا.

٢٩- شـفرة مـورس: هـي شـفرة حرفيـة مـن أجـل إرسـال المعلومـات التلغرافيـة، باسـتخدام تتابعـات قياسـية مـن عناصـر طويلـة وقصيـرة تعبـر عـن الحـروف والأرقـام والعلامـات والحـروف الخاصـة الموجـودة في الرسـالة.

أ	.-	ب	-...	ت	-	ث	-.-.	ج	.---	ح	....	خ	---
د	-..	ذ	...--	ر	.-.	ز	---.	س	...	ش	----	ص	-..-
ض	...-	ط	..-	ظ	-.--	ع	.-..	غ	--.	ف	.-.	ق	--.-
ك	-.-	ل	.-..	م	--	ن	-.	هـ	..-..	و	.--	ي	..
ء	.												

١	.----	٢	..---	٣	...--	٤	....-	٥	.....
٦	-....	٧	--...	٨	---..	٩	----.	٠	-----

المناداة	-.-.-.	الابتداء	-.-.-	الانتهاء	.-.-.

دكَّ العسكري الأرض بقدمه:

– تمام يا فندم.

سقطتِ السماعة من يده:

– في إيه يا حيوان؟

– المتهم يا فندم.

نهض من على مكتبه، ممسكًا بسترة بدلته، خرج مسرعًا وهو يرتديها:

– رجّعه زنزانته، السبت الساعة (٨) يكون قدامي.

الخميس، ١٠:٠٠ ص:

جلستُ بجوار الحائط الحائل بيني وبينها، أمسكتُ بيد ملعقتي، وبدأتُ أرسل لها أولى رسائلي مستخدمًا (شفرة مورس)، نقرتُ بالملعقة على الحائط عدد النقرات والشُرَطِ المناسبة:

– اسمك إيه؟

وضعتُ أذني على حائطها منتظرًا، إلى أن جاءني ردها من نقاط وشُرَطِ (شفرة مورس)، حاولتُ ترجمته إلا أنه كان غير مفهومًا، أعدتُ رسالتي عليها، جاءني ردها غير مفهومًا، كررتُ محاولة فك الشفر مرات ومرات دون جدوى، وبعد ساعات طوال من المحاولات الفاشلة استمعتُ لإشارات مفهومة:

– فاتن.. وأنت؟

اعتدلتُ فِي جلستي مبتهجًا لتمكنها من استيعاب الشفرة:

– مؤيد، إيه اللي حصل عندك امبارح؟

– اتقبض عليَّ فِي مظاهرة.

– أيوه.

– دخلوني هنا ونزلوا فِي ضرب، واتهجموا عليَّ، وكل ما أقاومهم يزودوا فِي قلة أدبهم.

قاطعتها مسرعًا:

– حصلك حاجة؟

– لأ الحمد لله، هددوني لو ما اعترفتش يوم السبت هيكملوا..

– كان نفسي أهد الحيطة اللي بينا وأنقذك من بين إيديهم.

– سمعت هَبْدِك امبارح، اعتقدت أن فِي بنت مصيرها نفس مصيري.

صَمَتتِ، وصَمَتُ..

الخميس، ٠١:٠٠ م:

– جاتلك فكرة الكتابة دي ازاي؟

obeikandl.com

- أنا مهندس اتصالات، و(شفرة مورس) حاجة عادية في شغلنا.

- بس فكرة جميلة.

نظرتُ للسقف مَليًّا..

- أعدل الياقة بقى.

- موتِّنِي من الضحك.

- وأنت اتعلمتيها بسرعة.

- حاولت.

- بتشتغلي؟

- طالبة في حقوق.

- وما أكثر الحقوق الضائعة في بلدنا.

- أنت فيلسوف ولا مهندس.

- ما تاخديش في بالك.

الخميس، ٠٢:٠٠ م:

بعد تناولنا الغداء، أشعلتُ سيجارة:

- بتحب تاكل إيه؟

obeikandi.com

– المكرونة، وأنتِ؟

– القلقاس، فينه دلوقت؟

ارتكنتُ على الحائط، وطرقتها برأسي:

– بتسمعي مين؟

– منير، وأنت؟

– الحجار.

– مفيش فرق بينهم.

– فعلاً.. الاتنين أصحاب قضية.

الجمعة، ٠٢:٠٠ ص:

– مرتبطة؟

– كنت.

– والسبب؟

– خطوبة صالونات، مهندس بترول في البحر الأحمر.

– وبعدين.

– طلب من صديق له يراقبني، علشان يعرف أخلاقي.

– غريبة.

obeikandl.com

- الأغرب، إنه طلب من صديقه يعاكسني علشان يشوف مدى استجابتي للمعاكسات، وصديقه لما شاف إني حد محترم، صارحني بكل حاجة وطلب إيدي للجواز.

قطعتُ زنزانتي طولاً وعرضًا، أنفث سيجارتي، عدتُ للجدار الحائل بيننا، أنقر بملعقتي:

- كملي.

- فسختِ خطوبتي، وطبعًا رفضتِ صديقه.

- وإيه سر طلبه الغريب؟

- بيشك في صوابعه، علشان..

- علشان إيه؟

- حلوة حبتين.

الجمعة، ١٠:٠٠ م:

- وأنتَ؟

- أنا إيه؟

- مرتبط؟

- حاليًا لأ.

- قبل كدة حبيت؟

- ما اقدرش أقول آه وما اقدرش أقول لأ.
- دي غِنوة؟
- عارفة أنت الحب الأفلاطوني؟
- أسمع.
- حصل في الجامعة.
- وبعدين.
- كانت مشاعر صادقة.. لكنها ساذجة.
- وإيه اللي حصل.
- زي ما ظهر الحب فجأة.. اختفى فجأة.

السبت، ٠٦:٠٠ ص:

- فاضل ساعتين وأروح للتحقيق، هتعملي إيه؟
- مش عارفة، أنا فعلاً ما عملتش حاجة، وخايفة لو ما قولتش اللي عايزينه، يبهدلوني.
- اسمعي، هعمل معاهم (ديل[٣٠]).
- إزاي.

٣٠- ديل : كلمة دارجة باللهجة العامية وهي باللغة الإنجليزية تعني اتفاق.

obeikandi.com

–   هاعترف لهم باللي عايزينه.. بشرط يفرجوا عنك.

–   أنت مجنون!!

السبت، ٠٨:٠٠ ص:

دخلتُ حجرة التحقيقات برفقة العسكري، بدت نواجذ الضابط وهو ينظر إلى ذلك الشخص الأنيق الجالس بجوار الطبيب في الزاوية، مشيرًا للعسكري بغلق الباب.

خرجتُ من مكتبه بعدما وقعتُ على الاعترافات المطلوبة نظير صفقتي معه، عائدًا إلى زنزانتي، لمحتُ باب زنزانة (٦) مفتوحًا، تهلَّلتُ فرحًا لنيلها حريتها، نظرتُ داخل الزنزانة، رأيتُ عسكري يحمل سماعات وجهاز تسجيل، وهو يحمله ضغط على أحد أزراره، فانبعث من الجهاز.. صوت صرخاتها.

دفعني العسكري أمامه، تصك آذاني ضحكاته.. وطرقات حذائه الغليظة.

٢٠١٢/١٢/١٢

تم بحمد الله

obeikandi.com

الفهرس	الصفحة
إهداء:..	٥
حجارة قلم :..................................	٧
جرافيتي :.....................................	٢٣
ع الغربة:......................................	٢٩
نملة سليمان:.................................	٣٥
توكة شعر:....................................	٤١
الشارع العمومي:..............................	٤٥
أصلان أيضًا .. ودائمًا:.........................	٥٩
الدرج الرخامي:..............................	٧٧
الحِمِش:..	٨٧
كونشيرتو:.....................................	٩٥
مشهد :..	١٠١
نور:..	١٠٥
في بر مصر:..................................	١١٣

obeikandi.com

عملة واحدة:........................ ١١٧

في المعقول:........................ ١٢١

آنسة حنين:........................ ١٢٥

لحظة مضطربة:........................ ١٢٩

تنهيدة:........................ ١٣٥

رامي ٢٠١٥ : ١٤٩

حكيم عيون :........................ ١٥١

وخمسة:........................ ١٥٩

كود:........................ ١٦٥

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikandl.com